برهان محمد سيفو
تكماندو
رواية
برهان محمد سيفو
تكماندو
رواية
حينَما يتوقفُ الزمَن،
وكلُّ الأحلامِ تبدو عصيَّةً على المنال
بسببِ العُنفِ المتفلتِ من عقالِه،
فتلكَ هي تكماندو.
تكماندو الحبّ، والحربِ ستظلُّ طويلاً
غصَّةً مؤلمةً في ذاكرةِ الأجيالِ المتعاقبة.

تَكمَانْدُو

رواية

عن الحبِّ والحرب

(النسخة المعدلة)

تَأْلِيفْ

بُرهَان محَمَّد سِيفو

عنوان الكتاب: تكماندو، النوع الأدبي: رواية، الطبعة الأولى، عدد النسخ 100 نسخة، آب 2021م.

دار بآكير للطباعة – سلميه.

المؤلف، ومصمم الغلاف: المهندس المدني برهان محمد سيفو.

العنوان الحالي: سلميه – شارع حماه – مقابل بناية الزهراء ط2 فني.

هاتف المكتب في سلميه 8812938 – الجوّال 0988551481

البريد الإلكتروني: brseifo@gmail.com

تحذير

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف. فلا يجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب، أو اختزال مادته بطريقة الاسترجاع، أو نقله على أي نحو، وبأي طريقة. سواء كانت الكترونية أو ميكانيكية، أو بالتصوير، أو التسجيل، أو خلاف ذلك. إلا بموافقة المؤلف على ذلك كتابة ومقدما.

" تكماندو" رواية سورية تؤرخ للفكر السياسي و الصراع في الدول العربية.

بقلم الصحفية المصرية: **الهام عبدالعال** .

المقال نشر في **جريدة المشهد** بتاريخ 4 نيسان لعام 2022م.

الناشر: مجدي شندي رئيس مجلس إدارة ورئيس تحرير جريدة المشهد.

يأخذنا الأديب السوري الشقيق "برهان محمد سيفو" في رحلة عبر المكان و الزمان نرى فيها الريف و المدينة ، العاصمة و الدولة ، الفقر و الغنى ، الصراع السياسي و الاجتماعي ، و الثقافي الفكري و النفسي .

و الريف في رواية تكماندو قد يكون سوريا أو مصريا أو ربما يمنيا أو تجد نفسك و أنت تقرأ عنه قد ذهبت بذاكرتك إلى مشاهد رأيتها في الريف الهندي أو الأفريقي أو الريف في أي دولة من دول العالم الثالث .. فكلها تقترب من بعضها في التأرجح بين فقر مدقع لفلاح بسيط وغنى لصاحب أملاك واسعة ومدارس تضم أبناء هؤلاء جميعا لتتمايز ملابسهم وفق مستويات أسرهم المادية ، لكن هؤلاء جميعا يجتمعون على عادات وتقاليد شرقية تعاني فيها المرأة تهميشا واستغلالا وتبعية وخنوع لسلطة الرجل مهما كانت بساطة حاله علما ومالا . لكن أديبنا لا يفوته أن يفصل بين مشاهد الحياة الانسانية بكل معاناتها بإستعراض لوحات مبهرة لجمال الطبيعة الخلاب و الذي يسمح باستراحة للنفس وسط مشاهد البؤس ..

يعرض الأديب السوري الشقيق صراعات شرقية بامتياز تبدأ من الريف بكل تفاصيله ليكون مدخلنا إلى الحياة الاجتماعية و السياسية بدولنا فتدور احداث الرواية حول "علي" الشخصية

المحورية و الذي يعاني في طفولته صراعا كبيرا لكي يحصل على أقل حق من حقوق الطفل و هو حقه في الذهاب للمدرسة فبينما يحلم "على" بأن يكون التعليم سفينته للهرب من الفقر ، يحاول الأب أن يجعل من على نفسه قاربا للإبحار في بحر الفقر بأن يخرجه من المدرسة ليعمل في عمره المبكر ويعين والده على سبل الرزق، وهنا يكون دور الأم التي لا تملك قرارا لكنها تلجأ إلى رجل عجوز بالقرية ليتحدث إلى زوجها ليعود "على" إلى دراسته ..

و لم يغفل الأديب استخدام الرمز في تسميته للأشياء ، فالقرية اسمها قرية "الصبار" لتصف حال أهلها والبطل المتطلع للعلم و الذي سيكون صاحب فكرّ تنويري فيما بعد اسمه "عليا" والدولة اسمها " تكماندو" ، لكنه يذكر :مصر" باسمها و يعتبرها الأمل في احداث تنمية و بدء التنوير في المنطقة.

يأخذنا الكاتب إلى أحوال المرأة وقهرها مستعرضا وضع أمه في البيت وفي الفلاحة ، ثم حال خالته التي تتبنى طفلا رضيعا وجدته في طريقها فيتهمها المجتمع به وتتخلى عنها اختها وتضطر لأن تترك القرية إلى المدينة لتعمل وتربي الطفل الذي وجدت في أمومته عوضا عن عنوستها بعد أن فاتها قطار الزواج ، فيعرض للتقاليد الفاسدة لتلك المجتمعات التي لا تأبه للرحمة والانسانية قدر اهتمامها بالمظاهر وان كانت كاذبة و الأخلاق و ان كانت ادعاء.

و مع انتقال بطل الرواية إلى المدينة لاستكمال تعليمه يعرض الكاتب للفوارق بين القرية والمدينة والأوضاع الاجتماعية حيث مزيد من التحرر ومزيد من الحرية للمرأة من خلال شخصية "سعاد" جارته التي يرتبط بقصة حب معها، تلك الفتاة الجميلة المتحررة القوية في التعبير عن حبها والتي يجد نفسه أكثر تعرفا على ذاته وانسانيته مع غرقه في حبها.

مع وصول بطل الرواية للجامعة نكون قد دخلنا إلى المعترك السياسي المحتدم بين حزب سياسي متسلط يتولى الحكم ويشد على شعبه بالحديد والنار ، وجماعات دينية متشددة تتشح بالدين طلبا للحكم وللسلطة وبين أحزاب يسارية هامشية مع ضعفها تتخلى عن بعض مبادئها التنويرية بمساندتها للجماعات الدينية في صراعها مع السلطة الديكتاتورية الحاكمة التي تسجن وتنكل بالمعارضين، فترفع تلك الأحزاب اليسارية في مساندتها لقوى الظلام المتشددة مبدأ "عدو عدوي صديقي" رغبة منها في التخلص من السلطة الحاكمة.

تستمر احداث الرواية لتعرض لتطور الصراعات الأيدولوجية و التي تتحول من صراعات فكرية إلى صراعات مسلحة بين سلطة الدولة والجماعات المتشددة تحت لواءات الخلافة مقتفية أثر دولا ديكتاتورية..

وتعرض الرواية لما يشبه الحلقات النقاشية بين شخوصها من مختلف فئات المجتمع بمختلف انتماءاتهم الفكرية بين يسار ويمين ووسط ومستقل والأخير لا هدف له سوى تنوير المجتمع و النهوض به، فتتوالى الأحداث الاجتماعية ممتزجة بالأحداث السياسية مستعرضا للتوجهات الفكرية من خلال تنوع شخوص الرواية وتعبير كل منهم عن تيار فكري أثر أو تأثر بالأحداث ...

يغوص الكاتب داخل الصراعات التى تدور بين التنظيمات الدينية والمؤسسات السلطوية والصراعات الفرعية داخل هذه وتلك و التي تكشف عن كذب ادعاءاتهم الفكرية. ويكون لمعاناة ومصير المرأة دائما دورا في رسم قبح الواقع الذي تعيشه تلك المجتمعات.

و لا يفوت الكاتب أن يخلق ما يشبه المناظرات الفكرية بين أصحاب النظريات الدينية الصلدة وأصحاب الفكر العلماني

التنويري الذي يتبناه بطل الرواية " علي" مع تأكيد الكاتب من خلال بطله على أن العلمانية لا تعني الإلحاد ولا تقترب منه ..

لكن الكاتب ينتهي بنا إلى نهاية حزينة فالفتاة التي تمثل التحرر تختطفها الجماعات الدينية وتصبح سبية للأمير والمحامي الذي ينتظر منه أن يدافع عن حقوق مواطنيه ينضم إلى الجماعات المتشددة ليكون عنصرا فاعلا فيها ..

و الأخ الذي يفترض فيه حماية أخته وتفهم ما أكرهت عليه من ظروف يذبحها دون عقل أو تفكير.

و "علي" المفكر المستنير تستغرقه الدعوة إلى التنوير حتى يهيم على وجهه في الشوارع ليشرح حقيقة ما فيه مجتمعه من ظلام غير مفرق بين انسان وجماد وينتهي به الحال في مشفى للأمراض النفسية.

الرواية في مجملها عمل فني ثقافي فلسفي، تؤرخ لفترة الثورات التى تعرضت لها دول المنطقة والصراعات التي دارت بين الجماعات الدينية وبين سلطات ومؤسسات تلك الدول. كما تؤرخ لتطور تلك المجتمعات فكريا وثقافيا بلغة عربية فصحى لكنها سهلة ومعبرة بقوة عن ما تحويه من فكر، ويتبنى " علي " بطل الرواية الأفكار التنويرية التي يتبناها الكاتب نفسه في شعره و في مقالاته . لكني آخذ على الكاتب النهاية المأساوية لأبطال الرواية و التي توحي بأن مجتمعاتنا بعيدة حتى عن الأمل في التغيير والاستجابة لنداءات التنوير وقد كنت أرجو أن أجد نهاية أخرى للرواية تدعو إلى مزيد من تضافر الجهود على سبيل التخلص من عادات و افكار بالية أدت إلى تخلف مجتمعاتنا.

الهام عبدالعال.

رد بقلم برهان محمد سيفو.

صباح الخير صديقتي الصحفية المتألقة الهام عبد العال

أما بعد، فإنني انحني احتراما لجميل صنعك في قراءة روايتي تكماندو والكتابة عنها بهذه الروح المثابرة على تتبع كل جديد في مجال الكلمة ان كان يهدف الى المساهمة في تجاوز المحن التي تعاني منها شعوبنا.

وانا إذ اقدر عاليا اهتمامك الغالي بما ذهبت اليه الرواية من تصوير لواقع شعوبنا أبان الربيع العربي اود ان اشير الى ان الرواية قد تركت بارقة أمل لاستمرار تيار التنوير وتواصله عبر ولادة حفيد لسمية (والدة علي الرجوب في الرواية) الذي اسمته ايضا علي الرجوب ومن هنا رأيت ان التنوير وان تعثرت سبله سيجد دائما عبر ولادة جديدة سبلا اكثر ثباتا للوصول الى هدفه.

نحن معا صديقتي المنتمية الى ذات القضايا التي انتمي اليها، والتي نعاني منها جميعا كشعوب شرقية، ولكنك من موقعك المتألق وذكائك الحاد تمضين في مكافحة الظلام كي ننعم معا ذات فجر جديد بالنور الذي ينقلنا الى ساحة الفعل من جديد بعدما طال أمد الظلام قرونا وقرون.

املنا قادم ولن يتأخر، فهذا الجيل الجديد الذي ولد في اتون الازمات قد بات مصرا ومثابرا على تحقيق امنيات شعوبنا بالانعتاق التام من قيود الأحادية الفكرية.

كل المودة والتقدير لجهدك الدؤوب في سبيل الكلمة الحرة والحقيقة.

برهان محمد سيفو. سوريا.

***

(1)

إلى الشَّرقِ من مَدينةِ مَكاندو، وعلى مَسافةٍ تُقدر بخمسةِ عَشر كيلو متراً تقع قرية **الصَّبار** الَّتي تتربع على سَهلٍ فسيحٍ يصل إلى جِبالِ البلعاس شَرقاً، وإلى شَمالها يمرُّ مَجرى السَّيل القادم من عُمقِ البَاديةِ مُخترقاً العَديدَ من القُرى وصولاً إلى مَدينة **مَكاندو**، ويتابعُ سَيره إلى مُحافظةِ **الغَمقَةِ** غَرباً.

وإلى الجَنوبِ والشَّرقِ من قريةِ الصَّبار تمتدُ البَسَاتين، وكُروم العِنبِ، والتِين، والمَقَاتِي.

وحَيثُمَا تُشرِقُ الشَّمس عَلى الأَراضِي الزِّراعيّةِ لقَريةِ الصَّبارِ كَانتْ تَستَيقظُ الطَّبيعَةُ، فَتنهَضُ بِكاملِ زينتها، لِتَدفُقَ صُنوفَ الحَياةِ جَمَالاً يَهمِي شَلالاتٌ مِنْ شَجَرٍ، ونورٍ، تِلالٍ وسُهولٍ، أَزهارٍ وعَنادلٍ، وعَصَافِيرٍ تغرّد عَلى أَغصَانِ التينِ والزيتونِ، وفَراشاتٍ مُلونةٍ تُداعبُ الوَقتَ في رقَصَاتٍ تُمَجِدُّ عِشقَها المُتأَصلِ للضَّوءِ.

وسَطَ ذلكَ كلَّه كَانَ ثمَّة كُوخٌ تُرابيٌّ مُشَيَّدٌ مِنْ بلوكاتٍ من الطينِ المخلوطِ بالقَشِ، وسَقفهُ مُغطى بِطبقَاتٍ من ذاتِ الطينِ، تَتخللها الأَعشَابُ على شَكلِ جَمَالون، وقطعٍ طَويلةٍ من الخَشبِ في كِلا الاتجاهين قد بَرزتْ ناتئةً بوضُوحٍ عن ذلكَ السَّقفِ المُنخفضِ، ومن خِلالِ الجُدرانِ

كانَتْ تَبرزُ كوىً دائريَّة على ارتفاعٍ قَليلٍ من الأرضِ، ويتوسَطُ الجِدار الجنوبي بابٌ بسيط تُغطيهِ ألواحٌ رأَسيَّةٌ رَقيقةٌ من الخَشبِ شُدَّت إلى بَعضِهَا البَعض بواسطةِ عَوارض أفقيَّة تقعُ عِندَ أَسفلِ الباب، وفي وسطهِ، وفي أَعلاه، فبَدا ذلكَ الكُوخ في تلكَ البُقعةِ من الأرضِ كأَنَّه قد شُيِّدَ على طِرازِ العَمارةِ الصِينيةِ، يَنهضُ من طينِ الأرضِ راسِخَاً، وبكلِّ ثبات، رُغم هَشاشةِ المَواد الَّتي صُنعَ مِنها.

ومن الجهةِ الغربيَّةِ لذلك الكُوخِ ثمَّة صَفٌّ من الأشجَارِ المُثمرةِ يمتدُ جَنوباً حتَّى حُدودِ بُستانِ أَبي تميم العَاني المُجاور، وتمتدُ إلى الشَّرقِ والشَّمال مَساحَةٌ تُقدر بعشرةِ دونماتٍ هي الأَرض الزِّراعيَّة الخَاصَّة بالبستاني محمد الرَّجوب لا تُحيطُ بها أَيَّة أَسوار، فتبدو من بعيدٍ شُجيراتُ القطنِ في مَساطِبِها المُتجاورةِ بساطاً أَخضراً يمتدُ على ما يَقرب من سَبع دونمات، أَمَّا المَساحة المُتبقية فقد كانت مَزروعةٌ بشتى صُنوفِ الخضرواتِ الصَيفيَّة.

وإلى جِوارِ ذلك الكُوخِ من الجِهةِ الشَّماليَّة ثمَّة بئرٌ للماءِ يَعلوهُ مُحركٌ، ومَضخةٌ تُستخدَم في سِقايةِ تلك المَزروعات.

كانت السَّاعةُ تُشيرُ إلى السَّادسةِ من صَبيحةِ الخامس عَشر من شهرِ نيسان لعام 1999، والبرودة تَتسلل عَبرَ

كوى الكُوخِ التُرابيّ حيث يَرقدُ صَبيٌ في الثَّالثةِ عَشر من عُمرهِ، وصَوْتُ أبي تميم العَاني يَهْدُرُ في الخَارجِ:

- انهضْ أَيُّها الصَّبي، واذهبْ إلى مَدرستك.

للوهلةِ الأولى بدا الصَّبي كأنَّه يَستيقظُ من كابوسٍ مُرعبٍ، وجاهدَ نفسه على النُّهوضِ، ثمَّ خرجَ إلى بابِ الكُوخِ، ونَظرَ إلى العَجوزِ أَبي تميم، الَّذي كان يقف قبالته، وقال:

- ولكنَّ والدي مَنعَني من ذلكَ يا سَيدي.

- لا تَهتمَّ، فوالدك قد وافقَ على إرسالك إلى مَدرستِك، هَيا لا تُضيّع الوقتَ، أتمنى أن أراكَ طَبيباً لامِعاً، وحينذاك آمل أَن تَتذكَرني.

ثمَّ ضحكَ أَبو تميم ضِحكتهُ السَّاخرة المَعهودةِ، ومضى يتمتمُ مَسَّباته جَرياً على عَادتهِ، أَمَّا الصَّبي فقد شَعرَ بأنَّه قد خُلِقَ من جديدٍ، فَسارَع يُجهزُّ أمتعتهُ وكتبهُ في استعجَالٍ وابتهاجٍ لافت، ثمَّ امتطى دراجته الهوائيَّة مُتوجها إلى مَدرسةِ الصَّبار، الَّتي تبعد حوالي أربع كيلومتراتٍ إلى الغربِ من بستانِ والده.

كان الصَّبي في الصَّفِ الأوَّل الإعداديّ مُجدٌّ في دراستهِ فترتيبهُ في المُقدمةِ مِنْ أقرانهِ، وكلّ أساتذته منذ المدرسةِ

الابتدائيَّةِ يعرفون ذلك، كمَا يَعرفون الوَضعَ المَعيشيّ المُتواضع لوالدهِ، ولهذا فقد كان يُعفَى في كلِّ عامٍ من رُسومِ المَدرسةِ، ولولا ذلكَ لكانَ والدهُ قد أَخرجهُ مِنهَا منذ سَنواتٍ خَلت بسببِ الضَّائقات المَاليَّة الَّتي كانتْ تَلُمُّ به، عَاماً إثرَ عَام، كما لو أنَّ الحَظَّ قد جَافاهُ تمامَاً.

والصَّبي علي هو الولدُ الثَّالث في أُسرةِ محمد الرَّجوب، وقد كان اسمه مُتوارثاً عن جدِّ والدهِ، أمَّا أخيه البكرُ تمَّام فقد توفيَّ في ريعَانِ شَبابهِ في حَادثِ سَيرٍ مؤلمٍ أبَّان أدائهِ الخدمةَ الإلزاميَّة، ومضى إلى الدَّارِ الآخرةِ إثرَ وعودٍ كثيرة كانَ قد قَطعَها لوالدهِ بأَنْ يُنقذهُ مِنَ الفَقرِ، فَكانتْ تِلكَ مُصيبةٌ أخرى احتلَّت إلى جِوارِ العَديد من مَثيلاتِها روحَ البُستانيّ محمد الرَّجوب المُثقلةِ بالهُمومِ.

أَمَّا الأَخ الأوسَط غَسَّان فقد كانَ يُتابعُ تَحصيلهُ العلميّ في **مَكاندو**، ويأتي لزيارتهم بين الحينِ والحين، فيتزودَ بالنقودِ القليلةِ المُمكنةِ، ويُسافر إلى **مَكاندو**، أمَّا أَخواته البَنات فكانتا اثنتين الكبرى **عَليا** والصُغرى **خَديجة**، وكلتاهما كانتا في المَرحلةِ الابتدائيَّة من المدرسةِ، وكانت والدته **سُمَيَّة** تتحمل هي الأخرى الكثيرَ من مشقاتِ العَملِ الزراعيّ المُرهق في سَبيلِ تأمين مَعيشَتهم.

حَياتهم كانتْ تسيرُ مُتعثرةً كمَا مُعظم الفلاحين في مَكاندو إلى أن تَعطَّلَتْ، ولسُوءِ طالع علي، مضخة الماء الضَّروريَّة لسِقايةِ المَوسمِ، وتكرر ذلك مراتٍ عديدة في ذلكَ العام مما أثَّرَ بشكلٍ سَلبيٍّ على مَحصولِ القُطن الرُّكن الأَسَاسِيّ في موازنةِ الأُسرةِ السَنويَّةِ، وإمعاناً في سوءِ الطَّالعِ فقد كان يعمل على إصلاحِ تلك المضخة ابن عمَّةِ والده، وهو رجلٌ مِنفاخ كانَ يُباهي بأنَّه يُناصِبُ التعليمَ عَداءً لا مثيل له، ونتيجة لتفكيره هذا فقد أخرجَ كلَّ أبنائهِ من المدرسةِ، ولم ينفقْ على تعليمهم قرشاً واحداً، وقد أوحى لوالدِ علي حين رآه متألماً من حظهِ العاثر بقرارهِ الرَّهيب.

ففي ذلك المساء حيث كانوا في كوخِهم الترابيّ يتناولون عشاءهم البسيط، كانت تبدو على محمدِ الرَّجوب علائم الغَضَبِ والانزعاج، وفجأة، وكأنَّه قد تذكَّرَ أمراً، وبما يُشبه الإلهام خَاطبَ علي قائلاً:

- علي قُل لي ما الفائدة من تعليمكَ؟ بينما يُمكنكَ أَن تتحملَ بَعضاً من نفقاتِ مَعيشتنا فِيمَا لو عَملتَ في الأرض.

أَجابَ علي، وهو يرتجفُ خوفاً مما قد تَوَجَسَّ:

- ولكنّي مُجدٌّ في دِراسَتي، ولديَّ طموح لأن أصل إلى الجَامعةِ ذات يوم، وأنا أعمل بكاملِ طاقاتي كي أُحقق طموحي هذا.

ردَّ محمد الرَّجوب سَاخراً من أحلامِ ابنه علي:

- الجامعةُ يا لهَا من أحلامٍ كبيرة، ولكنَّ الجَامِعَة مُكلفةٌ جداً، وهي ليست لأمثالنا، فليس باستطاعتنا تحمُّل مَصاريفها، فلتكفَّ عن طُموحاتكَ المَجنونَةِ الَّتي لا طائل من ورائِها، فمنذ الغد سَوفَ تنخرطُ في العَملِ الزِّراعيّ.

بدا لعلي أنَّ والده قد اتَّخذَ قراره الَّذي لا عودة عَنه، فهو الرَّجل الصلب الَّذي ما اعتاد أن يتراجع عن قراراتهِ تحت أيَّة مُحاولاتٍ لثنيهِ، فَشعرَ أنَّ صَاعقةً من سَماءٍ صَافيةٍ قد انقضَّتْ على روحهِ فبدَّدتها تماماً، إذ تحول مَصيره دفعة واحدة إلى مجرَّدِ عاملٍ زراعيّ بينما كانَ يحلمُ، طوال سني عمره، بمتابعةِ تحصيله العلميّ بتأثيرٍ من الرواياتِ الَّتي كانَ يَستعيرها من مكتبةِ المَدرسةِ، ويثابرُ على قراءتِها بمتعةٍ وشغف، وخصوصاً رواية القاهرة الجديدة حيث " تلمعُ القبَّة الجامعيَّة الفِضيَّة تحت الشَّمس، فتنعكسُ أشعَّتها مُتبعثرةً نحو السَّمَاء، في حين يثابرُ الشَّباب والصَبايا مشاويرهم، وحواراتهم الَّتي لا

تنتهي، فتدور حول شتى المواضيع في إطارٍ من المودَّةِ والحبِّ".

وروحهُ حينها هي الَّتي كانت تتواثب مع تلك الأشِعَة الذَّاهبَةِ نحو السَّماء.

أمَّا الآن وحُلمهُ قد تَبَخَرَّ، فقد تقوقع على نَفسهِ مُنذَّساً في حرامٍ مِنَ الصُوفِ، ومنزوياً في ركنٍ من أركانِ كوخهم يُثابر بُكائِهِ حتَّى ساعة متأخرة من اللَّيلِ على أَملِ أَن يرأَفَ والده بحالهِ، ولكنْ دون جدوى.

وقرب الفجر استسلم مُرغَماً لنومٍ مُثقل بالكوابيسِ، فكانَ ثمَّة رَهط عَجيب من الطلبةِ يَتحلقون كما الفراشات حول هالةٍ من الضَّوءِ تتواثبُ في مكانٍ سَامقٍ من السَّماءِ، وقد ارتدوا سترات وسراويل زرقاء تُشبه إلى حدٍّ بعيد اللِّباس المَدرسيّ، وفولاراتهم البيضاء قد صارت إلى مَا يُشبه الأجنحة تحملهم بكلّ يُسرٍ، وهم في تحليقهم يبتعدون كما الملائكة، وعلي مأخوذاً إليهم، ويحاول جاهداً اللَّحاقِ بِهم، ولكنَّ ثمَّة أمر يَحصلُ، وفجأة يتعثَّر ويهوي، إلى قاعِ حفرةٍ معتمةٍ لا قرار لهَا، بالقربِ مِنْ مضخَّةِ المَاء، وأَصوات زملائه تلاحقهُ بغيرِ انقطاع، فَيستيقظُ مَذعوراً.

ظلَّ ذلك الحُلم يُراودهُ كما الكابوس في دوَّامةٍ مُفزعةٍ لا انقطاع فيها إلى أن أيقظهُ صوت العَجوز أبي تميم.

والدته سُمَيَّة هي الوحيدة الَّتي رثَتْ لحَالهِ حينها، ولكنَّها لخوفها الشَّديد من غَضبِ والدهِ كظمَتْ غَيظها، وبيتَتْ أمراً، وإذ وجدت، كما علي، أحلامَها قد راحت تَذروها الرِّياح لم تدَّخرْ جُهداً في العَملِ على ثني زوجها عن قرارهِ، وفي صَباحِ اليوم التَّالي حينما راحت تَصنع الخُبزَ على تَنُّورٍ يقع في بستانِ أبي تميم العاني التقت بمحضِ الصُدفةِ بالعجوزِ البالغ من العُمرِ سَبعين عاماً، وكانَ مربوع القامةِ، ويبدو من مُحيَّاه كأنَّ السَّعادة لا تُفارقهُ، فَوجههُ الأسمر المليء بالتجاعيد يتلألأُ بالفرحِ، والتفاؤلِ، وحينما أَلقى تحيَّةَ الصَّباحِ على سُمَّيةِ وجدَهَا تغالبُ دُموعَها، وهي تَردُّ تحيَّتَه، فَسأَلها مُبتسماً:

- ما الأمر أيَّتها الحَسنَاء، لماذا أنتِ غارقة في أحزانكِ؟ الفرحُ أجمل من الحزنِ وأبقى.
- أهلاً أبا تميم، ليس هنالكَ مَا يجعلني سَعيدة هذا الصَّباح إذ قرَّرَ أَبا تمّام إخراج علي من المدرسةِ.

ضحك أبو تميم ضحكته السَّاخرة، وهو يقول:

- وهل هذا يستحقُ منكِ كلّ هذا العَناء؟ فكثيرون قد غادروا مدارسهم، ولكنَّهم مع ذلك تمكَّنوا من تحقيق سَعادتهم، فالرَّب كريم، وأبواب الرزقِ واسعة، وهي مهيأَة لكلِّ الناسِ سَواء تعلموا أم لم يتمكَّنوا من ذلك.

أخرجت سميَّة، من التنور، رغيفاً من الخبز السَّاخن، فوضعته على المسطبة، وقالت:

- هذا صحيح، ولكنَّ علي متفوقٌ في مدرستهِ، وليس ثمَّة سَبب مُلح لإخراجه مِنها، وقد عَقدت عَليهِ آمالاً كبيرة أن يُخَلِّصَ روحه من العَملِ الزِّراعيِّ المرهق الَّذي ابتُليتُ أَنا به.

لاحت في وجه أبو تميم ملامح التأثر حينما قال:

- لا عليكِ، دَعي أمرَ أبي تمَّام لي.

وهكذا أخذَ أبو تميم على عاتقهِ ثني أبا تمَّام عن قرارهِ، ووَعدَ سُمَيَّة بذلك، ثم مضى مُبتسمَاً، فشيعتهُ سُمَيَّة بدعواتها له بعمرٍ مديدٍ وسَعيد.

وحينما التقى أبا تمَّام، الَّذي كان يَهمُّ بالذَّهابِ إلى حقلِ القطن لسقايتهِ، لم يبذلْ أبا تميم الكثير من الجهدِ لإقناعهِ بالعدولِ عن قرارهِ، وقد تمَّ له الأمر كما أراد، فأبو تمَّام لم يكن مقتنعاً في أعماقهِ بالقرارِ المُتسرعِ الَّذي كان قد اتَّخذه بالأمسِ، فهو يُدركُ جيداً أنَّه لا يمتلك أيَّة ثروة ليورِّثها لأبنائهِ سوى تَركهم يتعلمُون، وهكذا وَجدَ علي نفسهُ في الطَريقِ إلى مَدرسته.

(2)

كانَ الطَلَبةُ في باحةِ مدرسةِ الصَّبار في اصطفافِهم الصَّباحي استعداداً للدُّخولِ إلى صفوفِهم، والمُوَّجِه يوسف سليمان يتلو التعليمات:

- كلّ من لم يلتزم باللِّباسِ المدرسيّ، فليعد إلى منزلهِ باستثناءِ علي الرَّجوب.

فقد تمَّ استثناء علي لأنَّه لم يكن يَمتلك ثمنَ لباس مدرسيّ، فكلُّ ما لديه من ثيابٍ عبارة عن كلابيَّة سوداء من الكتانِ خِيطتْ كما الشُّوال بثمنٍ زهيد، فكان علي يحسُّ في قرارةِ نفسه بالإهانةِ مِنْ هذا الاستثناء الَّذي يُعريه أمام زملائه، ويظهره كأنَّه البائس الوحيد في هذا العالم، فيشعر وكأنَّ مديةٍ حادةٍ تنغمسُ بعيداً في أعماقِ قلبهِ الصَغير.

كانَ الموَّجه يوسف سليمان ينتمي إلى **حزبِ تَكمَاندو** الحاكم، وقد كان حينها كغيره من الحزبيّين متحمساً للفئاتِ الفقيرة مِنَ الفلاحين الَّذينَ يَتحدر منهم.

وفي أواخرِ الستينيات حِينَمَا شعر، والكثيرين أمثاله من المنتمِين لأصولٍ فلاحيَّةٍ خَطراً على حزبِهم ونهجهِ اليساريّ، جرَّاء الانقلاب الَّذي صَححَ مَسيرة الحزب، حاولوا عبرَ تَجمعاتٍ ومَسيراتٍ متفرقةٍ عمَّتْ شوارعَ

قرية الصَّبار، والكثير من القرى الأخرى على امتدادِ **تَكمَاندو** أنْ يعبّروا عن مُعارضتِهم للانقلابِ العَسكريّ، وتَمسكهم بالقيادةِ الراديكاليَّة للحزب.

وبينما لم تُثمرْ جهودهم، كما كانَ مُتوقعاً، عن أيَّةِ نتائج تُذكر، فقد ابتعدوا عن الحزبِ فرادى وجماعات، لا بل ذهبَ فريقٌ منهم إلى تشكيلِ تنظيم سريّ مُعارضٍ تبنى، كما زعموا، المسألة الديمقراطيَّة، تحت نفس مُسمى الحزب الرَّسمي لتكماندو، بينما وجدَ آخرون تحت ضغط الخوف من المُلاحقةِ الأمنيَّة أنَّ مَصالحَهم تكمنُ في العودةِ إلى **حزبِ تَكمَاندو** الحاكم، وكانَ من هؤلاءِ الموَّجه يوسف سليمان.

وفي الحقيقةِ ما كان مُمكناً تاريخيَّاً، ولا موضوعيَّاً، في تلك الحُقبة أن يَحكمَ بلد على هذا القَدرِ من التنوعِ والتخلفِ سوى **حزب تَكمَاندو** ذو الأيديولوجيَّة المَرنة بما يكفي، والمَطاطة بما يكفي، لتتماشى مع كلِّ حالات ومواقف الكتلة الكبيرة من المجتمعِ ذات التَدَّين المُعتدل.

فكلُّ أحزاب اليسار العلمانيَّة رصيدهم لم يكنْ يتجاوز العشرين بالمئةِ من نسبةِ السُكان لينشطوا ضمنها، بينما التيارات الدِّينيَّةِ، وعلى رأسِها الإخوان المُسلمين، في ظلِّ تركيبةٍ كهذهِ، كان يُمكنَهم التنافس مع حزبِ تَكمَاندو على نسبةِ الثمانين بالمئةِ المتبقيةِ من السُكان، ولهذا فقد

ظَلَّ **حزب تَكمَاندو** على عدائهِ التاريخيّ الجَذريّ مع الإخوانِ المسلمين باعتبارِهم المُنافس الأكثرَ خُطورةً، في حين حَافَظَ على مواقفهِ المُهادنةِ مع التَّدينِ المُعتدل جراءَ ذلك، فكانَ هذا بالإضافة إلى فرضِ الرَّقابة البوليسيّةِ الصَّارمةِ السَبب الأساس لاستمرارِ حزب تَكمَاندو طويلاً مُمسكاً بزمامِ السِّلطة، دون مُعارضةٍ تُذكَر، فالحزب كان قد احتكرَ كلَّ جوانب النَشاط السياسيّ العلنيّ في تَكمَاندو لصَالحه.

ومنذ الانقلاب الثَّاني الَّذي صَححَ مسيرة الحزب، فجعلَ من القائد "الرمز" كلَّ شيء في الحزبِ والمُجتَمعِ والدولةِ، صَار حزب تَكمَاندو خاضعاً بما يكفي لإرادة الحاكم المُطلق، ومَرناً بما يكفي بحيث أتاحَ للقائدِ المُتحدرِ من الجيشِ إعادة ترتيب تركيبة الحزب كما يشاء دون أيَّة معوقاتٍ تُذكر، وبذلك فقد باتَ القائد العَسكريّ المُتحدر أساساً من بيئةٍ فلاحيَّةٍ هو الاختيار الأنسب لمجتمعٍ شَرَّشَتْ فيهِ تقاليدُ العَشيرةِ، وإسلام النَّبيّ مُحَمَّد، وإذ فَشلَ حزب تَكمَاندو عَبرَ تاريخه كلِّه في تنميةِ مُعارضةٍ ديمقراطيَّة حقيقيّة، فقد تَمكنَّ القائدُ "الرمز" وباقتدارٍ من إخضاعِ أغلب الأحزاب العلمانيَّة اليساريَّة المُعارضة، الَّتي كان نشاطها سريّاً فيما مضى، إلى العَملِ نصف علانيَّة تَحتَ مظلَّته وفق تحالف ذكيّ سُمي جَبهة العَمل والنِضال ضِدَّ الإمبرياليَّة، ورغم كلّ

السَّلبيَّات الَّتي رافقت هذا النَّهج فقد بدا حينها ضَرورياً لإنقاذِ تَكمَاندو من تَطرفِ التَّيار الراديكاليّ المُغامر في الحزب، خُصوصَاً بعد أن خسرَ ذلك التَّيار المُغامر إحدى معاركه المصيريّة مع دولةِ الاحتلالِ المُجاورةِ، ففقدَ جرَّاء هزيمته تلك هيبتهُ، ومعظم قواعده الشَّعبيَّة، وبذلك فقد تمكَّن القائد "الرمز"، ودون مُعارضةٍ تُذكر، من تَحميلِ مسؤوليَّة الهزيمَة النكراء إلى القيادةِ السَّابقة للحزب، الَّتي كان هو أحد أبرز أركانها، فَبدا حزب تَكمَاندو في ظلِّ قائده "الرمز"، كعادتهِ، مُنتصراً من جديد.

(3)

وحدُها أيَّام القريةِ، خلال فَصل الشِّتاء، كانت تَبعثُ علي الرَّجوب سعيداً، وتُثيرُ بهجتَه وتَوقه للحياة لأنَّه وأسرته كانوا يمكثُّون في القريةِ طوال موسم الأمطار، وتلكَ كانت فُرصته الذَّهبيَّة للحياة الرغيدة في حضنِ خالتهِ زينب، فتلك الأيَّام قد تصادفت في طُفولتهِ الباكرةِ مع ارتحال خاله إبراهيم، وخالته صَفيَّة، من قريةِ التَّل المجاورة، للدراسةِ في قرية الصَّبار، وبرفقتهم خالته الحسناء زينب لإدارةِ المنزل.

زينب الَّتي عَشقَها علي بصمت، وهي تتأبط يدهُ وتأخذهُ إلى بيتها الجميل، وتشتري لهُ الكثير من الحلوى والألعاب الَّتي كان يهفو لشرائِها، ولم يكنْ يتمكَّن من ذلك لضيقِ الحال، فكانت رعايتها له، وابتسامتها الآسرة تشيع في روحهِ كلَّ آيات الاغتباط، والفتنة، فَصارَ وخالتهِ على وفاقٍ تام أنَّهما في حاجةِ كلٍّ منهما للآخرِ، فزينب كان من السَهلِ عليها أن تُشبعَ غريزة الأمومة لديها بتبني طفلٍ جميلٍ مثل علي، وبدورهِ كان علي يحتاج إلى عاطفة الأمومة التي يفتقدها في والدتهِ سُمَيَّة.

سُمَيَّة الَّتي ما كانت تجد الوَّقت، أيَّ وقت، لتعتني بروحها الَّتي سُلبِت مِنها منذ أن صارتْ زوجة لوالدهِ الَّذي، كان كما أترابه من المُزارعين، يَعتبرُ أنَّ المرأة

مُجرَّد خادمة مُطيعة، ووعاء جنسيّ، وينبغي عليه تأديبها بكامل الشِّدة والعُنف، وتذكيرها في كلِّ حين بضحَالةِ وضعها، وقيمتها.

ولهذا فقد أضحت سُمَيَّة خلواً من كلِّ مَشاعر الأمومة الجميلة، وحتَّى من أغلبِ المشاعر الَّتي تُثير غبطتها وتوقها للحياة، فغدت مجرَّد آلةٍ للإنجابِ، والعملِ الشَّاقِ في الحقول.

أمَّا زينبُ فكانَ أمْرُها شَديد الاختلاف، فَهي على جانبٍ عظيمٍ مِنَ التَفرُّدِ والذَّكاءِ، والاعتدادِ بالنفسِ، وقوة الشَّخصيَّةِ، وكلُّ ذلك كانت قد اكتسَبَتهُ مِنْ خلالِ نشأَتِها في منزلِ، زوجِ جدةِ علي لوالدتهِ، حَسَنِ الحمصي الرَّجلِ المَيسورِ الحَالِ الَّذي كَانَ يَعملُ في التِجارةِ، وقد كانَت زينبُ، لأَسبابٍ غَامضةٍ، الأثيرة لديهِ مِمَا هيأَ لهَا ذلكَ الدَلال الَّذي تمتعت بهِ، وتلكَ الشَّخصيَّة المُتفردة الَّتي نَعمتْ بها.

وهكذا بات علي مُنبهراً بخالته زينب، فكان يسعى دائما لكي يكون برفقتها، فصارت بالنسبة إليه الأُنثى الأولى الَّتي تمكنت من تشكيلِ وتلوينِ طفولتهِ بألوانِ الجمال والحبّ، وقد كان يَشعر في كلِّ حين معها أنَّهُ يكتشفُها من جديدٍ، إذ كان تَمَردُها على العَاداتِ والتقاليدِ الرَّتيبةِ، وتَحملِها الكامل لمسؤوليَّةِ تصرفاتها بحبٍ كبير وانسجامٍ

مع روحها المتَّوهجِة، مثاراً لإعجابهِ الشَّديد، وثمَّة حادثةُ بالغةُ الغرابةِ، والتعقيد قد أكدَت لهُ ذلكَ كلَّه.

فذات فجرٍ شتائيّ عَاصفٍ، والدروب كلُّها يلفُّها ضَبابٌ كثيفٌ، وعلى البابِ المقابلِ للمَسكنِ الَّذي استأجرته زينب في الحيّ الشَّماليّ الغربيّ لقريةِ الصَّبار، وفي لُفافةٍ من الصوفِ المَجْدولِ على هيئةِ حرام شتويّ، مُزركشٍ بشتى الألوانِ، ووسط الرِّياح والمَطر الغَزير كانت صَرخاتهُ تُمزِّق الغيوم، وتَرثي لحالته النجومُ لفظاعةِ الألمِ المرتسمِ على وجههِ الملائكيّ، وهو الوافدُ الجديدُ إلى عالمنا بغيرِ بطاقة تعريف تُؤهلهُ ليكون عضواً آمناً في أُسرتنا البشريَّة.

لقيطٌاً في ساعاتهِ الأولى لرؤيةِ النورِ، حيث الحياةُ هي هبةُ خالقٍ عَظيمٍ، وهو الخالقُ الأدرى بمخلوقاتهِ وأمزجتهم والظروف الَّتي شكَّلت سلالمَ قِيَمهم، ونمط وجودهم وحسناتِهم وذنوبهم، مُتعَهم وأغلاطهم الَّتي يُمكِنْهُ غُفرانها وتجاوزها في كلِّ حين لو كان ذلكَ في مجتمعٍ أكثر استقلالاً عن الموروثِ من التقاليدِ والعاداتِ الباليَّةِ الَّتي شكلَّت سَدَّاً مَنيعاً في وجهِ حياةٍ حرَّةٍ تليقُ ببني الإنسان.

لقيطٌ ألقتهُ صَبيَّةٌ مَجهولةٌ إلى مَصيرهِ كي تُداري خطيئة عِشقها المَمنوع عن عيونِ النَّاسِ في مجتمعٍ لم يزلْ يخبّ

في أوحَالِ فقهٍ تراثيٍّ قاسٍ، وما فتئ يداري عوراتهِ ويطَّهرها بشتى ألوان المَوت الَّتي تثيرُ الاشمئزازَ، وتستدعي القَرف والرِّثاء.

إذ كانت جَرائمُ الشَّرفِ، ولم تزلْ تنالُ موافقة الغَالبيَّة الكاسحة من الَّذين يُشكلون الثَمانين بالمئةِ من المُجتمعِ، وحتَّى القوانين النافذة كانت تمنحُ مُرتكبي تلكَ الجرائمِ العُذرَ المُخففَ، وتُخفِّضُ عقوبتَهم إلى الحُدودِ الدُنيا بحيث استمرأَ الدُّهماء ذبحَ النساءِ للخلاصِ من العارِ المُتوهَم، فقد وضعَ هؤلاء ثقل شرفهم بين فَخذي الأنثى، وتجاهلوا تَماماً، وبخبثٍ واضحٍ صريحٍ، أنْ لا أنثى يمكنها ارتكاب فعل الحبّ إلا بوجودِ ذكر يُقاسمها مُتعةَ الحُبِّ دونَ أنْ يُقاسمَها عُقوبةَ القَصاص.

هذه اللفافةُ الخطيئةُ أثارت عاطفةَ الأمومةِ لدى زينب، فانتشلتها من الهلاكِ، ثمَّ حاولتْ، بوعيها الجميل، أنْ تحافظَ عليها بتبنيها، وقد شَرَعَتْ في تنفيذِ ذلك دونَ أنْ تكترثَ، أو تتنبأ بالعَواقبِ المُمكنةِ الحُصولِ جرَّاءَ ذلك، فَأُشُيعَ عن زينبَ حينها أنَّها لم تَكن لتفعل فعلَتها تلك لولا أنَّ ذلكَ اللَّقيطِ هو مولودها من عَلاقةٍ غَير شَرعيّةٍ.

ولكنَّ زينبَ بشخصيَّتِهَا المُتفردةِ وإرادتِهَا القويَّةِ جابهَت كلَّ ذلك بهدوءٍ، ووعيٍ وثقةٍ بالنَّفسِ، وتناقلت ألسن

النَّاسِ تلكَ الإشاعةِ، وافتُضِحَ أمر زينبَ في قريةِ الصَّبارِ، فاستدعتها أختها سُمَيَّة، ووبختها قائلةً:

- زينبُ: كيف أمكنكِ فِعْلُ ذلك، أتأوينَ لقيطاً لديكِ؟ فتُعَرِضينَ بذلك سُمعَتُكِ، وشرفك للطَّعنِ، وتجعلينَ النَّاسَ تُجللُ اسمكِ واسمنا بالعار.

ردَّت زينب بِأسَىً:

- وما دخل النَّاس فيما أفعل يا أختاه؟ أنا فقط تعاطفتُ مع طفلٍ بريءٍ كاد يَموت من الجوعِ والبردِ دون أيَّ ذنبٍ قد ارتكبه، ورأيت في الانتصار للحياةِ أكثر صواباً، وحكمة من مُمارسةِ طقوسِ الموتِ الشَّنيعِ كما هم يفعلونَ عادةً بغباءٍ، فأيُّ شرفٍ يكمُن في القَسوةِ والعُنفِ ضِدَّ طفلٍ بريءٍ، وتركهِ يموتُ مُتجمداً في العراءِ، فأيُّ ذنبٍ قد اقترفَهُ طفلٌ كهذا، وهو لم يزلْ على أعتابِ حياةٍ لم يختبرها بعد؟

رَدَّتْ سُمَيَّة بِغضَبٍ، وبشيء من الاشمئزاز:

- ولكنَّكِ بذلك قد عرَّضتِ سُمعَتُكِ وسُمعَتنا لألسنِ النَّاسِ تتداولها، ولنْ يتفهَّمَ سُلوكِكِ الأرعنَ أيٌّ كان.

بدت زينب حينها وقد ران على وجهها شيء من الحزن، والتحدي، فقالت:

- وما همِّي من ذلك كلّهِ؟ فالنَّاس يُحجِمونَ عادةً عن الفعلِ الصَحيحِ في الوقتِ المُناسبِ لتقعَ الكارثةُ، ثمَّ النَدمُ جرَّاءَ ذلكَ بحجةِ أنَّهم يَخْشونَ المُجازفةَ، وتعريضَ سُمْعتهم للثرثرةِ الفارغةِ، وأنا كلُّ هذا لا يعنيني، فضميري في سَلامٍ، وهذا دأبيَّ ومُبتغَاي، وليس النَّاس.

وحينما أدركتْ سُمَيَّة أنْ لا أملَ لهَا بتراجعِ أُختِها زينبَ عن قرارِها، قالت مُهددةً مُتوعدةً، وقد اربدَّ وجهها من الغضب المكتوم:

- ولكنّكِ إنْ لم تتراجعي عن موقفكِ المُشين، فاعتبريني كأنَّني لم أعرفكِ قبلاً، ولن أعرفكِ إلى الأبد.

بهذهِ الكَلماتِ الطَّافحةِ بالقسوةِ تبرأَتْ سُمَيَّة من أختها زينبَ، ثمَّ طَردتها مِنْ مَنزلها.

كان بادٍ لكلِّ ذي رُشدٍ أنَّ زينب قد وجدت في ذلك الصَّبي لُقيَا كانتْ تَبحثُ عنها عَبرَ هَوىً عَاثرٍ كانت قد عاشتهُ حيناً من الزَّمنِ، ولكنَّه لم يثمر سوى الخواء، فتناساها الزَّمن عَانساً، وستتحمل زينب مدى الحياة الوِزرَ الثقيلَ لفعلِها وتبعاتهِ الشَّنيعةِ، فمنذ ذلكَ الحين صَارَتْ زينب غريبةً تماماً في مُجتمعِ قرية الصَّبار، وفي قريتِها التَّل أيضاً، فقد تَخلى عنها أقربُ المُقربين إليها، وبات يُشَارُ إليها بالبنانِ على أنَّها عَاهرةٌ، لا بل

صارت عُرضةً لمُضايقاتِ من يَدَّعُونَ العِفَةَ والشَّرفَ من الذُّكورِ، على شتى ألوانهم وخلفياتهم الاجتماعيَّة، فغادرت زينبُ مُرغمةً إلى العَاصمةِ بيلافور، وبين يديها ذلكَ اللَّقيط الَّذي تبنته وقرَّرت النِّضالَ من أجلهِ بشجاعةٍ منقطعةِ النظير، ومنذُ ذلكَ الحِينِ انقطعت أخبارُها عن مَكَاندُو.

(4)

لم يكنْ التَرفيهُ مُمكناً لمُعظمِ أبناءِ الفلاحين في قريةِ الصَّبار، وبسبب ذلكَ، فقد ابتكر الأولادُ الكثير من الألعابِ ليستمتعوا بِها، ويتشاركوا اللَّهو مع أقرانهم، فكانت لُعبة "العَظمُ الضَّائع" تجمعُ مُعظمَ فتيان الصَّبار في ساحةِ القريةِ، في المَساءات المُقمرةِ، حيث تعلو الأصوات ويختلطُ الحابلُ بالنابلِ، وقد كانت لُعبةً في غايةِ البساطةِ إذ يَكمُنُ جوهرُها في البحثِ عن قطعةِ عظمٍ بيضاءَ لحيوانٍ نافقٍ يتم رميها في الهواءِ بعيداً من قِبل أحد اللاعبينَ، ومن ثمَّ يَشرعُ الجميع في البحثِ عَنهَا حتَّى إذا وجدها أحدهم بات من حقهِ أن يُرسلَها في الهواءِ ثانيةً بينما عيون اللاعبين الآخرين مغمضةً، وهكذا.

وتكاد لعبةُ "العظمِ الضائعِ" أنْ تكون اللّعبة الوحيدة الَّتي تجمعُ مُعظم فتيان قرية الصَّبار كبارهم، وصغارهم، فيما يشبه العرس الحقيقيَّ، فكان علي مبهوراً بتلكَ اللعبةِ، ويشارك فيها أقرانهُ بحماسٍ منقطعِ النظير، فصار ذلكَ أحد مَصادر سَعادتهِ النَّادرة.

وفيما خلا لهوٍ كهذا، فقد كرَّسَ علي كلَّ أوقاتهِ للدِّراسةِ والاجتهاد، وقراءةِ الكتب الَّتي كان يُواظبُ على استعارتِها من مكتبةِ المدرسةِ، وهذا بالذَّاتِ قد جعل منه

ذلكَ الشَّخصَ الانطوائيّ الغارقَ في أحلامهِ الرومانسيَّةِ، فلم يعرف الحبّ الحقيقيَّ سبيلاً إلى فؤادهِ بعد، فَكانَ يهتزُّ كما الوَترِ المَشدودِ لدى مُقابلة أيَّة صَبيَّة، وإذ كانت رغباتُهُ الجنسيَّة في أوجها، فإنَّها كانت تُصادفُ منهُ كبتاً فظيعاً، فراحَ يُبرّرُ ذلك على أنَّه بمثابةِ نوع من عَملقةِ الذَّات للتغلبِ على المحن، وفي واقع الأمر، فقد كان ذلك مجرَّدَ خداعٍ باردٍ، وكفٍّ قسريٍّ لتلك الرَغَبات المتوحشة بعيدا عن أيِّ إشباعٍ حقيقيٍّ.

وفي طريقهِ إلى مَكاندو، حيث كَانتْ تنتظرُه عَمتهُ مريمُ، كانَ علي الرَّجوب يَحلم بصبايا المدينةِ الجميلات، كما اعتاد أن يلتقيهن في صفحات الروايات الرومانسيَّة التي طالما قرأها بشغف، وحاملاً حقيبةً صغيرةً فيها كتبهِ، وكرَّاساتهِ وصلَ إلى منزلِ مريمَ الرَّجوب عصر ذلكَ اليوم فاستقبلتهُ عَمَّتهُ بمزيدٍ من التَّرحابِ، وعرَّفته على الصَبيَّة سُعاد الرَّاعي الَّتي كانت، وبالمُصادفةِ السعيدةِ، في زيارةٍ لمريمَ، وقد كانت سُعاد هي الأخرى تستعدُ لتقديمِ امتحانات الثَّانوية العامة في ذاتِ الوقت.

وهكذا، ولأولِ مرَّة في حياتهِ كان علي يختبرُ ذلك التذرعِ بالصَّبرِ، ومحاولة التنكر خلفَ ردائهِ، كمثقفٍ صغير، بِمَا يُسَهّل عليهِ البقاءَ دونَ الاحتراق الكامل في ظلِّ الحُضُورِ المُلفتِ للصبيَّةِ الحسناءِ سُعاد.

كان منزلُ مَريمَ الرَّجوب بسيطاً، فهو مكونٌ من غرفٍ ثلاث ومنافعها، وهو دارٌ من تلكَ الدُور العربيَّة المكونة من طابقٍ واحدٍ مع فسحةٍ سماويَّةٍ، وشرفةٍ أرضيَّةٍ تُطلّ مباشرةً على أحدِ الشَّوارعِ العامةِ لمدينة مَكاندو، ويظلُّ مفتوحاً طوالَ الوقتِ بسببِ بابهِ الخارجيّ المخلوع حيث لم يأبه زوج عمتهِ البائعِ البسيطِ بإصلاحه.

جلس علي مُرتبكاً بعضَ الشيءِ إلى أن توجَّهت إليه سُعاد، بابتسامتها المشرقة، قائلةً:

- حدثتني عمَّتكَ عن اجتهادِكَ، وطمعاً في استغلالكَ سألتجئُ إليكَ لتوضيحِ بعضَ النقاطِ الَّتي فاتني فَهْمُها في المنهاجِ، فهل توافق؟

تَململَ علي في كرسيهِ، وتمتمَ بخجلٍ:

- على الرَّحبِ والسِعة.

ابتسمت سُعاد، وهي تلاحظُ ارتباكَ علي، ثم التفتت من طَرفِ ناظرِها إلى مريمَ لترى وقعَ كلامِها عليها، فبادلتها مريمُ الابتسام، وقالت في غمزةٍ لافتةٍ:

- ابن أخي ملاكٌ طاهرٌ، وهو لم يعرف في حياته كلِّها سوى كتبهِ ومدرستهِ، ولهذا فلن تجدي خيراً منهُ لتعليمكِ.

أمَّنت سُعاد على كلام مريمَ، ثمَّ توجَّهت إلى علي مبتسمةً، وقالت:

- كم أنا محظوظةٌ إذ تَعرفتُ إليكَ في الوقتِ المُناسبِ سَنلتقي كثيراً أيُّها المُجتهد، أليس كذلك؟

ردَّ علي، وابتسامةُ الرِضى ترتسمُ على محياه:

- نعم، سنلتقي كثيراً.

وقد أدركَ لحظتها، ولأول مرَّةٍ في حياتهِ، ذلك الإحساس الخفيّ باللَّذةِ الَّذي يبعثهُ التحدثُ إلى أنثى على مثلِ هذا القدر من الفتنة.

كانت **سُعاد** صبيَّةً متوَّهجةً حتَّى حدودِ الاحتراقِ، متدفقةً كشلالٍ عارمٍ، وحينما تُجلجلُ ضِحْكتها، مُدويَّةً بكلِّ عنفوانِ صباها، كانت تهزُّ كيان علي كلَّهِ، وتبعث في روحهِ نشوةً لم يَعهَدَها من قبل.

ومع مرورِ الأيَّام، ورغم أنَّ مُدَّةَ الاختبارات لم تكن طَويلةً، فقد كانت كافيةً لتجعلَ من علي إنساناً آخر، مُختلفاً عما مضى، إذ أضحت **سُعاد** الرَّكيزة الأساس لعالمهِ الجَميل الَّذي بدأ لتَوه.

وفي صباحِ يوم الجُمعَةِ الَّذي أعقبَ وصول علي إلى منزلِ عمتِهِ في مَكاندو، وحينما كان لا يزالُ في سريرهِ

يغطُّ في نومٍ عميقٍ، إثرَ سهرة مُضْنيَّة طالت حتَّى ساعات الصَّباح الأولى، أمضاها في الدرسِ والاجتهادِ، باغتتهُ **سُعاد** على حينِ غفلةٍ، فأخذت كأساً من الماءِ البارِدِ، وسكبتهُ على وجههِ بابتهاجٍ عارمٍ، وهي مُستغرقةٌ في ضَحكاتِها المُجلجلة، فملأت المَكان بصَخبِها، وشغبِها الأنثويِّ البديع، فبدا ذلك مُثيراً حتَّى حُدودِ النشوة.

لم يكن علي فيما مضى ليتساهل مع مثل هكذا تجاوزات على خصوصيَّتِهِ، ولكن مع سُعاد بدا الأمر مُختلفاً بشكلٍ كلِّي، فنظر إليها وهي في أوجِ مرحِها الطفوليّ، وضحك بدوره، كابِحاً بصعوبةٍ جِماحَ نفسهِ، ثمَّ قال وهو ينهضُ من سريره:

- يبدو أنَّكِ تُمارسينَ شَغَبَكِ بمرحٍ، وقليلٍ من الحكمةِ.

كان ذلك بَعضاً من تصنعهِ الثَّقافةِ المنمَّقةِ مجارياً بذلك، على نحوِ ما كان يبدو لهُ أنَّه، ثقافةُ أهلِ المدينةِ، فما كان من سُعادَ إلَّا أن انفجرتْ في موجةٍ جديدةٍ من الضَّحكِ الصَّاخبِ، وهي تقول:

- أيُّها المجنون، كفَّ عن تَصنُعِ الحكمةِ، فأنتَ حينما تلعبُ دورَ المُحَنَّكِ تبدو مُثيراً للغثيان وحسب، هيا انهض ولنمضِ معاً إلى الشُّرفةِ، فقد أعددتُ لك قهوة الصَّباح.

كان علي يستسلم لأوامرها بسعادةٍ عارمةٍ، فينقاد بكلِّ سهولةٍ ويسر إلى تحقيقِ مَراميهَا، وكلُّهُ ابتهاجٌ بذلكَ الانقيادِ السَلسِ لأنثى حسناء على هذا القدرِ من الانطلاقِ، والعفويَّة.

كلُّ ذلك كان يحدث بعيداً جداً عن تلكَ الخطوط الحَّادةِ، المضبوطةِ بحزمٍ، التِّي رسمها لحياتهِ بتأثيرٍ من تربيَّةِ والدهِ الحازمةِ الصَّارمة.

وقد بات، بمرورِ الوَقت، يشعر أنَّ ثمَّة ما يجعلهُ أقرب فأقرب إلى سُعادَ بل لقد بات يشتهيها، ويحلم بنعيم قربها دون أن يُدركَ مغزى تلك التحولات العميقة التِّي تجري على روحهِ المفرطةِ بالأحلام، فصار يعيش مع سُعاد بصمتٍ تجربة حبٍّ فَريدةٍ دون أن يتمكَّنَ من الإفصاحِ لأيٍّ كان عمَّا يعتلج في صَدرهِ خصوصاً لسُعادَ الَّتي أخفى عَنها مشاعرهُ بمزيدٍ من الكَبتِ والتَّصَنُع.

نشأت **سُعاد** في كنفِ والدها أحمد الرَّاعي عامل البناء البسيط الَّذي ترعرعَ في وسطِ بيئةٍ متنورةٍ بفعلِ تلاقِحِها مع أفكارِ أحزاب اليسار العلمانيَّة المعروفة بنزعاتها التحرريَّة، مما أتاح لسُعاد أن تنالَ قسطاً وافراً من الحُريَّةِ والانطلاق والاستقلاليَّة بحياتها كفتاة، وكلُّ ذلك أسهم في تفتحِ أنوثتها كما الورود تتفتح للضِّياءِ، في ربيعٍ لا حدودَ لاخضرارهِ وفتنته.

وبسحرِ تلكَ الأنوثةِ كانت **سُعاد** وكأنَّها تُغنِّي كلَّما باغتت علي بإطلالتِها الصَّاخبةِ المَرحة حيناً وابتسامتها الخفرة الآسرة حيناً آخر، أمَّا ضحكاتها المُجلجِلة فقد كانت تبعثُ في روحهِ شتى ضروبِ المُتعِ العَارمةِ.

كانت سُعاد قد أعدَّت القهوة منذ وصولها إلى منزلِ عمتهِ، ووضعتها على طاولةِ الدِّراسةِ في الشُّرفةِ المُطلةِ على الطريقِ العام، وكان ثمَّة باقةٌ من الورودِ تتوسط تلك الطاولة قد أحضرتها سُعاد ووضعتها في وعاء من البلَّورِ على نحوٍ أنيق، وبعد أن جلسَ علي إلى تلكَ الطاولةِ بادرتهُ قائلةً:

- هذا الصَّباح، ومنذ أن استيقظت تمنيت أن أشرب القهوة برفقتك، وها قد تَحققَتْ أمنيتي مما أثار في روحي مَوجة عارمةً من التفاؤلِ والمَرح، صَباحُكَ ياسمين أيُّها الفتى المُثابرُ العنيد.

ثمَّ ضحكت بخفرٍ لذيذٍ، وهي تتناول زهرة ياسمين، وتدُّسها في أنفهِ، فبدتْ أنثى في غايةِ الإثارة.

تَململ علي خَجلاً، ثمَّ نظرَ إلى سُعاد، وقال:

- يُسعدني حُضوركِ، ولا أخفيكِ أنِّي كنتُ أحلمُ بذلك، وأتمناه، أيَّتها الفتاةُ الحسناء، فأهلاً بكِ.

ابتسمت سُعاد راضيةً، وقد أعجبها الإطراء، فجلست على كرسيها إلى جوارِ علي.

كانا وحيدين فقد غَادرت مَريم الرَّجوب منزلها منذ ساعات الصَّباح الأولى لمُتابعة بعض شؤونها في سُوقِ مَكاندو، وكان الشَّارع العام يبدو أمامهما من الشُّرفةِ الَّتي يجلسان إليها، وبعض المارَّة من حينٍ لآخر يمضونَ خلفَ مشاغلهم، بينما على الشُّرفةِ المقابلةِ كان ثمَّةَ امرأة حَسناء رشيقة القَوام، شقراءَ الشَّعر، تقوم بنشرِ غسيلها، وهي لم تزلْ بلباسِ نومِها، وقد أبدت الكثير من مفاتنها، إذ ظهرت حُلمتا ثدييها خلف كامنيها الأبيض الشَّفاف كما حبتي كرزٍ على طبقينِ من لجين، وشفتيها الخمريتين معقودتين كبرعم وردة في ذروةِ الفتنةِ، فبدت لعلي كزهرةٍ بريّةٍ نضرةٍ، فتمنى في أعماقِ روحه لو أنَّ له منزلاً مع امرأةٍ مثلها، وشرفة كتلك الَّتي أطلت منها، وأن يستمرَّ دهراً كاملاً يُمتع ناظريه بمفاتنِها، فزادهُ ذلكَ شُروداً، واضطراباً إذ كان يُقارن كلّ حياته السَّابقة العجفاء بهذا الواقع المُثير الَّذي صَارَ إليه.

في هذه الأثناء كانت سُعاد قد شَرعتْ بارتشافِ قهوتِها، فالتفتت إليهِ بخبثٍ أنثويٍّ بديع، وقد لاحظت شروده، فقالت، وهي تبتسم:

- دعكَ مِنها، وابقَ معي فقد تَركتُ كلَّ واجباتي كي أجلس مَعكَ، القهوة تذكرني دائماً بالحبِّ، تُرى كم مرَّة وقعت في الحبِّ؟ هَاتْ حدثني عن مغامراتكَ أيُّها الفتى الشَّقيِّ، ولا تخفِ عَني شيئاً يتعلق بحياتك العاطفيَّة.

كان بإمكان علي الرَّجوب الإجابة بالنَّفي، إذ لم يكن قد مرَّ بتجربةِ حبٍّ حقيقيّةٍ بعد، ولكنَّهُ إذ تذكر قصته المُؤلمة مع زميلته أمل قال:

- إليكِ واحدةً من أغربِ قصصِ الحبّ الَّتي مررتُ بها، ولعلَّها اليتيمة أيضاً.

منذ عامين، حينما كنتُ في الصَّفِ الأول الثَّانويِّ، كان ثمَّة تلميذٌ في مدرستِنا اسمه سمير الآغا، وكانت له أخت حَسناء اسمها أمل، وكان لأمل أخت تَصغُرهَا بعامين اسمها عُلا، ولأنَّهم من سكانِ قرية بعيدة عن قريةِ الصَّبار، فقد استأجروا منزلاً قريباً من منزلنا كي يتمكنوا من مُتابعةِ تحصيلهم الدراسيِّ.

لفتت أمل، منذ رأيتها لأول مرَّة، انتباهي بشعرِهَا الأسود الفاحم وعيناها العسليتان، وابتسامتها الهادئة الآسرة، وخديها المُوردين، وقوامها

المَمشوق، ومشيتها الأنيقة الواثقة، وشفتيها الناضجتين كحبتي كرزٍ.

إضافة إلى ذلكَ فقد كانت أمل في موقعِ المُنافسة معي على الترتيبِ الأوَّل في الصَّفِ، وهذا ما كان يثيرني، ويشدني إليها أكثر.

وإذ كنتُ قد فُتنتُ بأملٍ غاية الافتتان، فقد سَعيتُ جاهداً لكي أظلَّ قريباً مِنها فكان أنْ وطَّدت علاقتي بأخيها سمير لتحقيق مبتغاي، وهكذا بات سمير رفيقي المُفضَّل رغم أنَّه ليس نداً لي، فقد كان فتىً عنيداً مُشاكساً، وكسولاً، ولهذا فقد كان الكثير من زملائهِ يتجنبون صحبتهِ، ومع ذلك صرت من حينٍ لآخر أترددُ إليهِ في منزلهِ ليتسنى لي رؤية أمل والتودد إليها.

وخلال زياراتي تلك لم أكنْ أتمكَّن من رفعِ ناظريَّ عن وجهِ أمل، وقوامها المَمشُوق، وفي أحيانٍ كثيرة كانت أمل تلاحظ ذلك فينتابها إحساس بالخجل مما يجعلها تبدو أكثر سحراً وفتنةً، فصرتُ مَشدوداً إليها بقوةٍ لا تقاوم، لا بل صرت أشتهيها، وتراودني صورتها في أحلامي ويقظتي، وبتُّ في غايةِ الشَّوقِ لكي أحدثها عن حبّي دون أن أتمكَّن من ذلك.

واستمرَّ الحال كذلك إلى أن كانت أمل ذات مساءٍ في زيارةٍ لزميلةٍ لها تُدعى هَناء رُستم وكنت، من خلالِ أخيها سمير، قد أخذتُ عِلماً بتلك الزِّيارةِ المُرتقبةِ وموعدها، فبدا سمير وكأنَّه متواطئٌ معي في ذلك، فما كان مِنِّي إلا أن تأهَّبتُ لحلولِ المُعجزةِ.

انتظرت طوال ساعتين قريباً من منزلِ هناء أراقبه من بعيدٍ حتَّى إذا لمَحتُ أمل قد خَرجتْ من منزلِ هناء تابَعتُها من بعيد على الرَّصيفِ المُقابلِ إلى أن اختفت هناء تماماً خلف باب منزلها، فحثثت الخُطى حتَّى بتُّ مُحاذياً لأمل، وسلمت عليها مرتبكاً، وإذ تفاجأتْ بوجودي إلى جوارِها، ارتعدتْ خِشيةَ أنْ يرانا أحد، فطمأنتُ أمل إلى أنَّني ذاهبٌ للتوِ في سبيلي، وفي عُجَالةٍ تناولت ورقةً مطويَّةً من جيبِ سُترتي فدسستها في يدِها، ومضيتُ مبتعداً لا ألوي على شيء، فقد كان ذلك مبتغاي، وغاية مُرادي.

ثمَّ انتظرت طَويلاً ردَّ أمل على رسالتي تلك، ولكنَّ ذلك الرَّد لم يصلْ، لا بل تَغيرت أمل بشكلٍ مفاجئٍ، وباتت تُعاملني بشيءٍ من الرِّيبةِ والازدراء، دون أن أدركُ سَبباً لذلكَ.

فَطاشَ لُبي وَتَحيَّرَ قَلبِي وأنا أبحث عن سببٍ لتلكَ المعاملة القاسيَّةِ الَّتي شَرَعَتْ بها أمل تجاهي، فصرت أضع شتى التخمينات لأسبابِ رفضها لي وتبدل أحوالها نحوي دون أن أصلَ إلى نتيجةٍ تُذكر فَاستسلمت إلى أحزاني بُرهةً من الزَّمنِ إلى أن كنتُ ذات مساء أفتش في جيوبِ سترتي فعثرتُ على رسالتي تلك، واستغربتُ الأمر إلى أن أدركتُ متأخراً أنَّني قد أخطأت، فدسست في يدِ أملَ فاتورة مشترياتي، الَّتي كُنتُ قد دونتها بنفسي، بدلاً من رسالتي.

ولشدَّ ما كان ذلك مُربكاً لي، فَخَمَّنْتُ حينها ما دار بخلدِ أمل تجاهي إذ لا بدَّ أنَّها قد شَكَّكت بنزاهتِي، وبأنَّني ما كنتُ سوى هازئٍ بها مُستخفٌ بعَواطِفِهَا، فأعرضت عَني.

ومن يومها قررتُ أنَّ الحُبَّ لا يُناسبُني.

قالت سُعاد ساخرةً، وهي تَغرقُ في ضحكاتٍ صاخبة:

- وهل هذا كلُّ شيء أيُّها الدنجوان الشَّقيّ؟

- نعم، هذا كلُّ شيء.

ضحكت سُعاد حتى انقلبت على قفاها، وقالت:

- يا لكَ من عاشقٍ أحمق يا صديقي! كان عليكَ أن تخبرَ أمل مُباشرة بتعلقك بها إذ أنَّ فاتورتكَ تلكَ لم تكنْ لتفعلَ ذلكَ بالتأكيد.

وحتى يتجاوزَ حرجه سألَها بشيء من الارتباك:

- وأنتِ ما قصص الحبّ الَّتي مررتِ بها؟

قالت سُعاد وهي لم تزلْ مُستغرقة بالضَّحك:

- لم يَدُّس أحد في يدي فاتورة مُشترياتِه بعد، ولا زلتُ أنتنظر.

وضَحِكا معاً، ثمَّ ثابرا التمتع بجلستهم المَرِحَة فقد كان شُغلهم الشاغل حينها بالإضافة إلى المُذاكرةِ والدَّرس التحدث عن الحبِّ، والأجواء العَاطفيَّة بين الشَّبابِ والصبايا في مَكاندو، وقد بدتْ سُعاد خلال ذلك مُنطلقةً على سجيتِها، وهذا ما كان يشدُّه إليها برغبةٍ مُتوحشَة.

(5)

ذات مساء، وعلى غيرِ انتظارٍ من علي الرَّجوب، دعتهُ سُعاد الرَّاعي إلى منزلها، فلم يتوانَ عن تلبية دعوتها، فعبرا شارعاً عريضاً من حارتي مرور، وهو الشَّارع الرئيسيّ في مكاندو، وكان يكتظُّ طوال فترة المساء بالعاشقين، وإذ كانَ ذلكَ مناخاً فريداً امتازت به مَكاندو عن غيرِهَا من مدنِ تَكمَاندو فقد شَعرَ علي بمتعةٍ غريبةٍ تنتابه، وهو يراقبُ مشهداً كهذا لم يكن مُعتاداً بالنسبة له في قريتهِ الصَّبار.

ثمَّ دلفَا إلى شارعٍ فَرعيّ، فوصلا عند قُربِ نهايتهِ إلى منزلِ سُعاد الَّذي كان عبارة عن بناءٍ مكون من طابقين من الإسمنتِ المُسَلَّح يتميَّز بواجهتهِ الحجريَّةِ الجميلة، وكانت حوائط الفيرندات تبدو في اكتمالِ زينتها إذ يعلوها دربزون رشيق من الفولاذِ، وقد جرى تلوين رسوماتهِ النباتيَّةِ في مُحاكاةٍ لألوانِ الأزهارِ في الطبيعةِ، فنمَّ ذلك عن ذوقٍ رفيع، وصَنعةٍ مُتقنَة.

كان الطابق الأرضي مُخصصاً لأهل سُعاد وإخوتها، بينما كانت هي تحتلُّ غرفة واسعة، خُصصت للدراسةِ، في الطابقِ العُلويّ مؤثثة على نحوٍ جيد، فبالإضافة إلى الكنباتِ المُرتَّبةِ، والسريرِ الأنيقِ، كان ثمَّة صفٌّ من كراسي الخيزران يتصدر الحائط المقابل لبابِ غُرفتها

بالإضافةِ إلى كرسيين أنيقين بجوار طاولةٍ تَوسَّطت الغرفة، وقد أُعِدَّت تلك الطاولة للدراسةِ وعليها مصباح كهربائيٌّ جميل وطاقة من الورودِ الطَبيعيَّةِ موضوعة في وعاء من البلَّورِ المُزَّخرَفِ.

جلسا إلى تلكَ الطاولة مُتجاورين، وراحا يُثرثران في شتى المَواضيع الَّتي تخطرُ على بالهم، فكانت سُعاد تقتحم قصصَ الحُبِّ المُثيرة بكثيرٍ من الجرأةِ، وحياؤها البديع حينما تتلونُ وجنتيها بالحمرةِ كانَ بعضاً من غنجِ أنثى تَعلمُ بغريزتها كيف تكون مَلكَةً للغوايَّة.

وفجأة نظرت سُعاد في عيني علي وهي تبتسم، وقالت بلهجةٍ تهكميّةٍ مُتحديّة:

- ما الَّذي تبتغيه من كلِّ هذا الاجتهاد أيُّها الغَافلُ عن صَخبِ الحياة؟

أجابها علي:

- رغبتي أن أُثابر على اجتهادي، وتفوقي، فالجامعة هي هدفي الأسمى، وقد كانت حُلمِي الجميل منذ سنواتي الأولى في المدرسةِ، وستظلُّ كذلك.

ورغم أنَّه كان يَشعُرُ في أعماقِ روحه، أنَّ سُعاد كانت مهيأة للمُضي معهُ في حالةِ حبٍّ، فإنَّه لم يكن متيقناً بعد

من قدرتهِ على مُجاراةِ فتاة بكلِّ هذا الانطلاقِ والحيويَّةِ، فوجدَ نفسهُ يعيدُ إليها سُؤالها:

- وأنت ما الَّذي تَطمحينَ إليه؟

إجابةُ سُعاد كانت مُحدَّدة، وفي منتهى الوضوح:

- مُعَلِّمَةُ مدرسة، ولن تتعدى طُموحاتي حداً كهذا مَهمَا كانت نتائج الثَّانويّة، فأنا أبتغي سَبيلاً مختصراً، وغير بالغِ التعقيد للوصولِ إلى أهدافي في الحياةِ، أمَّا الحبّ فسيكون نبراس سَعيي، وذروة طُموحَاتي.

فسألها علي، والخجل يغشى مُحياه:

- وفي الحبِّ إلى أين أنتِ مَاضية الآن؟

ضحكت سُعاد ضحكتها المُجلجِلةِ، وقالت:

- يبدو أنَّني لن أنتظرَ طَويلاً، فقلبي يُنبئَني أنَّني على وشكِ الوقوعِ في حالةِ حبٍّ لا شفاء منها.

وإذ لاحظت سُعاد، ارتباكَ علي بادياً على محياه، تابعت تقول، وهي تبتسم:

- ولكن، ما لكَ وسؤال كهذا يتطرق إلى خصوصيتي أيُّها الفتى الشقي؟

وضَحكَتْ سُعاد حتى تورَّدت وجنتاها، فبدت في غايةِ الجمالِ والرِّقةِ.

وكان علي حينها يتأملُ عن كثبٍ جَسدُها المُثير المُلقى إلى جوارهِ، وشفتيها الورديتين ونهديها المُنتصبين، وشعرهَا الأشقر المُرسل على جيدِها اللُّجين، واحمرار خديها المتوهجين، وابتسامتها الآسرة بمزيدٍ من الاشتهاءِ والتوق لاحتضانها أكثر من أيِّ وقت مَضى.

وحتى تلك اللَّحظة كان علي يَشعُر، بتأثير من تربيته الصارمة، بأنَّ كلَّ ارتباط يجب أن يكون مُقدساً، ولا يجب أن يُدَّنَسَ بالرَّغباتِ الحِسيَّة، ولهذا فقد ثابر على تجاهلِ توَّرد خديها، وتوقِهَا المَحمُومِ إلى قبلةٍ، فقال مُوضِحاً:

- فقط مُجرَّد فضول، فأنا أقدِّسُ الحبَّ، ولكنَّني غالباً لا أسعى إليهِ، ولا أُدركُ سَبباً لذلك، فهل ثمَّة فتاة يمكنها أنْ ترتبطَ بصبيٍّ خَجولٍ مثلي؟

وبابتسامتها الآسرة ردَّت سُعاد:

- كم أنتَ مسكين، ولا تدركُ قدر نفسك، فكلُّ فتاة تصادفكَ يُسعدها أن تكونَ أنتَ حُلمها.

فسألها علي، بخبثٍ، مُستفسراً:

- حتَّى أنتِ؟

قالت سُعاد وقد توَّردت وجنتاها خفراً:

- حتَّى أنا.

ولم يتمالك علي نفسه حينها، فقد تَملكَتهُ رغبة جامحة للمغامرةِ الجريئةِ دون أيّ حساب للعواقبِ المُحتملةِ، فما كان منهُ إلَّا أن احتضنها، والتقم شفتيها بين شفتيهِ في قُبلةٍ طويلةٍ محمومة، وحينما وجدها تُقاومَهُ بفتورٍ ثابر الغَرقَ في ثغرِها الفاتن، أما هي فقد ازداد خداها توردا، وشَفتيها تلظيَّاً، وكانت تتنفس بصعوبةٍ بين يديه لشدةِ تأثرها في حين راحت يداه تجوبان مفاتن جسدها الشَّهيّ، وتتحسسان مؤخرتها الطريَّة، وفخذيها البضين، فشعرَ علي بسعادةٍ تفوق حدود أيَّة تصورات مُمكنة، وقبضة والدهِ الَّتي كانت تهصرهُ راحت تتلاشى رويداً رويداً، بينما هو يغرقُ في جيدها المَرمريّ، ويستنشق عبيرها بشغفٍ محموم حيث كان تحليقُه بغيرِ حدودٍ إلى ذُرى مُتعٍ غامضةٍ لا يقدر على منحِها سوى الحبَّ، فكان ذلك أقصى مَا تمناهُ في حياتهِ كلِّها.

تنهدت سُعاد بعمقٍ إثرَ ذلكَ العِناق، وبدتْ وكأنَّ صخرة قد انزاحت عن صَدرِهَا، فكان ذلك اللقاء إيذاناً ببدءِ مرحلةٍ جديدة في حياةِ علي الَّذي باتَ مُغتبطاً أشدَّ

الاغتباط وهو يودع سُعاد، وقُبلاتهِ تنهمرُ مَطراً على خديها الموردين، ثمَّ غَادرَ إلى منزلِ عمَّته، حينما كانت السَّاعة تشير إلى الحَّاديّةِ عشرة قبيلَ منتصف اللَّيل، بعدما قَبَّلَ عينيها وجبينها عِرفَاناً منهُ بما قدَّمته لهُ من نَفْسِها.

(6)

رنَّ مُنبه جَوَّالها مُعلناً السَّاعة الثَّامنةِ صَباحاً، فاستيقظتْ سلمى الأسمر نَشيطةً مَرحةً كعادتها، وبعدما أخذت حمَّاماً دافئاً ارتدت أجمل ثيابها، ووضعت زينتها بلمساتٍ ناعمةٍ رقيقةٍ، ثمَّ ألقت إلى كتفِها حقيبتها، وغادرت منزل والدها متوجهةً إلى كليَّةِ الحقوق في جامعةِ بيلافور.

وسلمى هي الابنة الصُغرى للسَّيد أحمد الأسمر الأستاذ العلمانيّ المعروف، والمحاضر القدير في كليَّةِ الاقتصادِ والتجارةِ بجامعةِ بيلافور، وهو ينتمي بالأساس إلى جذورٍ فلاحيّة متحدراً من مدينة مَكاندو، وقد عُرف عَنهُ صرامته وجديَّته في العَملِ، ودقته في المواعيدِ، إضافة إلى انفتاحهِ على الحياةِ، بكلّ صنوفِها، بما في ذلكَ المَلذَّات الحسيَّةِ الَّتي كان يُعاقرها بأريحيةٍ، وكثيراً ما تَسببَ لهُ ذلك بمنغصاتٍ، فكانَ يتجاوزها بحنكةٍ وذكاء، إذ كان يَرغب دائماً بالحياة على سجيتهِ غير مكترثٍ بالعواقبِ المحتملة جرَّاء ذلك، وبسبب انفتاحهِ الرَّحب على الحياةِ، والحبّ، فقد أسهم بشكلٍ كبيرٍ في جَعلِ أُسرتهِ تمتلك ذلكَ السِّحر الخاص الَّذي امتازت بهِ، فَسلمى لم تكن أبداً من صنفِ الفتيات المُنغلقات بل كانت تعيش حياتها متحررةً من كلّ صنوف الكَبت المُتوارث.

وفيما مضى كان أحمد الأسمر قد انتقل إلى بيلافور، منذ عشر سنوات، وبرفقته أُسرته المُكوَّنة من زوجتهِ نجوى وبناتهِ الثَّلاث الكبرى ماريا والوسطى سوزان والصغرى سلمى وشابين في مقتبل العُمر هما فايز وإسماعيل، وقد اتَّخذ أحمد الأسمر لهُ منزلاً جميلاً في إحدى ضواحي العَاصمةِ تحفُّ بهِ حديقة غنَّاء من جهاتهِ الأربع.

وقد كانت سلمى مُنطلقة في الحياةِ على سَجيتها، فهي غير عابئة بشيء، وفوق ذلك كلُّه فقد كانت مجدَّة في دراستها، فهي في سنتها الثَّانيَّة من كليّة الحقوق، ولم تتجاوز التاسعة عشرة من عمرِها بَعد.

حضرت سلمى في الطابقِ الثَّاني، والمُدرَّجِ الثَّالث من كليَّةِ الحقوق حصةً في القانون الدوليّ، ثمَّ توجَّهت كعادتها إلى مَقصفِ الكليَّة الواقع في الطابقِ الأرضيّ لتتناول قهوتها وسندويشة الهامبرغر اليوميَّة المُعتادة، فجلست إلى طاولةٍ بالقربِ من أحواضِ الورودِ الَّتي تعشقُها، وبانتظارِ إعداد طلبها راحت تُقلِّبُ صفحات كتاب انتشلته من حقيبتِها.

كان مَقصفُ كليَّةَ الحقوق عبارة عن قاعةٍ واسعة تُضيئها نهاراً نوافذ عريضة من البلَّورِ، ويتوسط تلك القاعةِ عدد من أحواضِ الورود الَّتي صُنعتْ من الرُّخامِ

المُعشَّقِ، وقد رُتبَت على نحوٍ مُتتابع وأنيق لتحتلَّ وسط تلك الصَّالة في الاتِّجاه الطويل، وفي الرُّكن المقابل للمَدخلِ العَريض كان ثمَّة طاولة من الرُّخامِ للخدمةِ يقع خلفها بوفيه وبار متوسط السِّعة ولكنَّه كان كافياً لتأمين طلبات الطلبة، وفي الجهة الأخرى المقابلة لسلمى كان ثمَّة شُبانٌ يتسامرون وهم يرتشفون قهوتهم، ومن بين هؤلاءِ شاب وسيم مُلتحٍ يبدو من مَظهرهِ أنَّه على قدرٍ كبيرٍ من الذَّكاءِ والطموحِ، وعلى قدرٍ مماثلٍ من الانطلاقِ والجرأة.

كان يرتدي بدلة زرقاء من الجينزِ تحتها قميص أحمر من الكتانِ، وتتدلى من عنقهِ قلادةٌ من الذَّهبِ الأصفرِ الخالص، ويبدو أنَّ ذلك الشَّاب قد تعقَّبَ سلمى منذ زمنٍ بعيد، والآن وقد استرعى وجودها انتباهه، فقد وجد في ذلك فرصته المواتيَّة للتعرف إليها، فراح يُفتشُ عن سببٍ للتواصلِ معها.

وما أن شَرعتْ في ارتشافِ قهوتها حتَّى تقدَّم إليها، وبقليلٍ من الحذرِ والجرأةِ خاطبَها قائلاً:

- صباح الخير، أرجو أن تغفري فُضولي، فأنا أرغبُ في التحدثِ إليكِ منذ زمن بعيد، وقد وجدت الآن فرصة قد تكون مناسبة، فهل تسمحين بذلك؟

بدت سلمى غير مكترثة، وبدافع اللباقة قالت:

- أهلاً أستاذ، وما الَّذي يمكنني أن أفعلهُ لأجلكَ؟

ردَّ الْفَتى بأدبٍ جمٍّ:

- لا أبتغي سِوى التحدُّث إليكِ، فَهل هذا مُمكن؟

ردَّت سلمى وهي تداري امتعاضها من هذهِ المُصادفةِ غير المُتوقعَة:

- طيب تَفضَّل.

ولم تكن سلمى لتستغرب عادةً اندفاعة كهذه من شابٍ وسيم، فكانت، والابتسامة تعلو مُحَياها، مُذهلةً إلى درجةِ أنَّ الشَّاب لم يُخفِ انبهاره بها.

جلسَ الشَّاب إلى كرسيٍّ قبالة سلمى، وشرعَ يقول:

- يمكنك الثِّقَة بي، فبالرُّغم من أنَّني لا أدَّعي الكمال لكنَّني أتفهم أنَّ الحياة تضعنا أحياناً في مواقفٍ لا يمكننا تَجَنُبهَا، فقد كنتُ قد تتبعتكِ منذ مدَّة، فأضحتْ أمنيتي الأثيرة هي التَعرُّف إليكِ، فهل هذا مُمكن؟

تنحنحت سلمى وهي تبتسم، وقالت:

- سلمى الأسمر، سنة ثانية بكليَّةِ الحقوق.

بدت سلمى في أوج فتنتها، وابتسامة الاستغراب لم تزل ترتسمُ على مُحياها، وبقدرٍ من رفعِ الكُلفةِ والاستهتارِ الَّذي اعتادته قالت:

- وأنت من تكون أيُّها الفتى المغامر؟

ردَّ الفتى مُبتسمَاً:

- جمال الخاني، في السَّنةِ الرابعة من كليَّةِ الحقوق.

تفرَّست سلمى مُجدداً في ملامحهِ الوسيمةِ، وقالت:

- وما الَّذي حملك على اقتحامِ مجلسي؟ ألا تدرك مدى المخاطرة الَّتي وضعتَ نفسكَ في غمارِها فأنا عَادةً لا أطيق مثل هذه التَحرشات الَّتي يقوم بها عادةً شبان هم في أبسط الاحتمالات أقل شأناً منكَ ليفعلوا ذلك.

ردَّ جمال بعد أن طلبَ، وقد اطمأنَّ لحُسنِ العاقبةِ، فنجانين من القهوة:

- ولكنَّ هدفي أكثر نبلاً من أن يُوصمَ بالتَّحرش، فالرَّب الَّذي خلق كلَّ هذهِ الفتنةِ لم يكن ليفعل ذلك لولا أنَّه أتاحَ لنا أنْ ننظر إليها، ونُقدرهَا حقّ قدرها، وأنا لا أبتغي منكِ سوى أن أكون صديقاً، وكما ترين فإن طموحاتي لا تتجاوز حدود الأدبِ، واللَّباقة.

ضحكت سلمى ملء فيها، وإذ وجدته منقاداً إليها بمثل تلك الرَّغبة الطَّاغية الجَموح فقد رَغبَتْ في إظهار سَطوتها عليه، فقالت في غنجٍ ودلال:

- على الرَّحبِ والسعةِ، ولكنَّني إن لاحظت منكَ ما يُغضبني فلا تلمْ سوى نفسكَ، فأنا فتاة غيورة، ولا يمكنني أن أغفر لشابٍ وسيم قد قدَّم نفسه إليَّ طوع إرادته أن يُخَاتِلَ فيكون دنجواناً تحوم حولهُ الفتيات من كلِّ حَدبٍ وصوب، فهل نتفق على هذا منذ البدء؟

ردَّ جمال وابتسامة الظَّفرِ تعلو مُحياه:

- أوافق على شروطكِ كلَّها، شريطة أن تقبلي صداقتي.

وأضافَ بشيءٍ من الجرأةِ:

- وحُبِّي.

ردَّت سلمى والابتسامة لا تفارق ثغرها:

- اتفقنا على الصداقةِ إذن، أمَّا الحُبّ فلنستبعده الآن، ولنرى مدى التزامك بما وأفقتني عليهِ لتوكَ.

- وستجدين مع مرور الوقت أنَّني قد أحرزت تفوقاً في التزام كلّ شروطكِ.

وبعد حديث قصير، بدا لها شيقاً مع فتاها، نهضت سلمى وهي تَعتذرُ لجمال بأنَّها مُضطرة للذهابِ إلى قاعةِ المُحاضرة فقد أوشك أن يحلَّ موعد حصتها التاليَّة في القانونِ المَدنيّ.

وفي عُجالةٍ من أمرها تبادلت مع جمال أرقام هواتفهما ثمَّ ودَّعته مُصافحةً إياه بتلك الغِبطة الَّتي تنتاب صَبيَّة أحلامُها بفارسٍ وسيمٍ على وشكِ التَحَقق.

كانت سلمى شاردة اللُّبَّ طوال جلستها في قاعةِ المحاضرةِ الثَّانيَّة، ولهذا آثرت الانصراف، وحينما صارت في منزلها ألقت حقيبتها قرب المَدخلِ المُفضي إلى قاعةِ الجلوس، ومضت إلى أريكةٍ في البهوِ المُطلِّ على حديقةِ المنزلِ حيث شجرة الليمون قد أزهرتْ، والعَصافير لم تزلْ من حينٍ لآخر تُغازل فتنة الضُحى بتغريداتِ الحُبّ الجَميل.

راحت سلمى تَسترجعُ بصمتٍ وقائع لقائِها مع جمال الخاني، وتتأمل بحذرٍ تلكَ الوعود الغامضة الَّتي أطلقَها بمثلِ ذلكَ الاندفاع والجُرأة، ولكنَّها لم تغفل لحظة واحدة عن تلكَ الوَسامةِ، وذلك التأنق اللَّذين بدا بهما، وبينما هي تسترجع صورته في خَاطرِها أخذتها غفوة لذيذة، دامت طويلاً، إلى أنْ ربتَتْ والدتها نجوى على كتفِها وهي

تدعوها لتناولِ طعام الغَداء، وإذ لاحظت نجوى انشداه سلمى بذلك، قالت:

- لَعلَّك كنتِ تحلمين بفارسٍ على حصانٍ أبيض كما كلِّ الفتياتِ في مثلِ عُمرك؟

ابتسمت سلمى، وأمَّنتْ على كلام والدتها بقولها:

- ماما، لقد وصلَ ذلك الفارس، وربما لا تفصلني مسافة كبيرة عن مُلاقاتهِ في مُنتصفِ الحُبِّ.

ابتسمت نجوى ابتسامة تنمُّ عن فرحٍ حقيقيّ، ولكنَّها إذ أرادت المُراوغَةِ قالت:

- لا تَعجُزكِ التهيؤات أيَّتها الفتاة الطَروب، وآمل أن يكون لأحلامكِ نصيب في دُنيا الواقع.

- نعم ماما أخبرك أنَّه قد وصل فارسي، وهو ينتظر قراري.

ثم شرعت تقصُّ على والدتها ما حصل لها في كليَّة الحقوق هذا الصَّباح، وكيف فاجأها جمال الخاني برغبتهِ الطاغيَّةِ في التعرفِ إليها، وكيف طرحَ عليها صداقته، وحبَّه بمثلِ تلكَ الأريحيَّة، والجُرأة.

ابتسمت نجوى متفائلةً، وبشيء من الحَذرِ قالت:

- عليكِ أنْ تكوني يَقظةً، فما أكثرها النَّزوات الطارئة لشُبانِ هذهِ الأيام، وآمل أن تَتَرَيْثي حتَّى تختبري حقيقة مشاعر هذا الفتى نَحوكِ كي لا تجلبين لروحكِ تعاسةً أنتِ بغنىً عَنها.

ردَّت سلمى، بعد قليلٍ من الصَّمتِ، كانت خلاله تفكر ملياً في تحفظاتِ والدتها:

- نعم ماما، فأنا لا زلت دون أن أقطع أيَّ عهد على نفسي تجاه جمال بالرُّغمِ من أنَّهُ شابٌ وسيمٌ ولطيف، وممتلئٌ بالثِّقةِ بنفسهِ، وكما يبدو من مَلبسهِ وهيئته أنَّه ينحدرُ من أسرةٍ ثريّة.

قالت نجوى وابتسامة الرِضَى تغشى مُحياهَا:

- لنرَى، ونترقب إذن نِهاية حكايتكما هذهِ، الَّتي آمل أن تتكلَّلَ بالنجاح.

ثمَّ سَحبتْ سلمى من يدِها إلى طاولةِ الطعامِ التي كانت تَتَوَّسط الصَّالة.

كان الأستاذ أحمد الأسمر يَتصَدرُ طاولة الطعام فمضت نجوى لتجلس إلى جوارهِ، وتَحَلَّقَ الأبناء والبنات حولهما بكثيرٍ من الألفةِ والمودةِ.

بدت سلمى أكثر توَّهجاً وشروداً، وهي غارقة في أحلامها الورديَّة، وصورة جمال لم تُفارق خيالها، ولو لحظة واحدة، فظلَّت كذلك إلى أن ردَتها نجوى إلى عالمِ الواقعِ حينما خاطبت زوجها قائلةً:

- يبدو أنَّ سلمى قد وقعت أخيراً على فارسِ أحلامها.

ردَّ أحمد الأسمر على مُلاحظةِ زوجته:

- هذا خبرٌ مُفرح.

ثم توجَّه إلى سلمى يسألها:

- هل حقاً ما تقولهُ نجوى؟

ابتسمت سلمى، والخفر يعلو مُحياها، وقالت:

- نجوى لا يُمكنها حفظ الأسرار لقد كانتْ مجرَّد مصادفة، وربما لا يعوَّلُ عليها كثيراً، فنحن في بدايات تعارفنا أنا وزميل لي في الكليَّةِ اسمه جمال الخاني.

ردَّ أحمد الأسمر:

- ومهما يكُن الحال، فذلك يشي بأمرٍ حسن، آمل أن أتعرَّف إلى هذا الشَّاب قريباً، وقبل أن تتخذي قراركِ بصدده.

علَّقت ماريا، الأخت الَّتي تكبر سلمى بعامين، بقولها:

- هذه أخبارٌ طيبة سلمى، وضحكت وهي تُعانق وتقبل أختها مُغتبطةً.

وكذلك فعلت شقيقتها الأخرى سُوزان.

بدا أحمد الأسمر مُتفهماً جَرياً على عادةِ المُتنورين في تَكمَاندو، بالإضافة إلى أنَّ تَعلقه بسلمى يجعله مُستعداً لتلبية كلِّ رغباتها بحبٍّ وسعادةٍ غَامِرة.

(7)

كانَ جمال الخاني وزينب الحمصي يعيشان في حيٍّ مرموقٍ مِنْ أحياءِ بيلافور، وكانت أحوالهم الماديّة تَرفُلُ بالرَّخاءِ والدِّعةِ، ولعلنا لم ننسَ بعد حكايتها مع ذلك اللَّقيط الَّذي تبنتهُ وغادرتْ مَعهُ، ومن أجلهِ، قرية الصَّبار هذا اللَّقيط الَّذي باتَ الآن شاباً وسيماً على وشكِ التَّخرُّج من كليَّةِ الحقوق.

وحتَّى تلك اللَّحظة لم يكنْ جمال الخاني يَعلمُ عن حكايتهِ شيئاً، فقد تسترتْ زينب على تلكَ الحكايةِ حتَّى بَدتْ كأنَّها نسيتها تماماً، بتغافلِها عَنهَا، وكتمانِها لها.

وإثرَ مغادرتِها مَكاندو كانتْ زينب الحمصي قد عانتْ كثيراً إلى أنْ وجدتْ عَملاً يُقيم أودها، فقد استأجرت غرفة لدى سيدةٍ عجوز في حيٍّ مِنْ الأحياءِ الفقيرةِ في بيلافور، وراحت تلتمس قوتها عَبرَ خَدماتٍ مَنزليةٍ تُقدمها للمُوسرين مِنْ النَّاسِ في الأحياءِ الرَّاقيةِ بينما كانت في ذاتِ الوقت تبحث عن عملٍ يناسبها، إلى أن وجدَته في شركةٍ خاصةٍ للاستيراد والتصدير، فَصارتْ موظفة في قسمِ الاستقبال لتلكَ الشركة، وقد كانتْ الظروف مواتية، والحظُّ قد وافاها إذ تَعرَّفَ إليها في عملها ذاك رجلٌ على حظٍّ وافرٍ من الوسامةِ والثراءِ اسمه أحمد الخاني الَّذي سَبقَ أنْ انفصل عن زوجتهِ، منذ

زمنٍ بعيد، فبات عَازباً، وقد كان يبحث عن زوجةٍ أخرى تناسب حالته، وإذ التقى بزينب أثناء تسيير معاملة تَخصُّه لاستيرادِ خيوطِ الحرير، فقد فتنته بلباقتها وحسنها، فبادرها قائلاً وقد لَمَحَ أنْ لا محبس يُزين يدُها اليُسرى:

- هل لي أنْ آخذ من وقتكِ قليلاً.

أجابته زينب بعد أنْ قدَّمت لهُ كرسياً ليجلس عليه:

- تَفضَّل على الرَّحبِ، والسِعة.

ولأنَّه كانَ تاجراً حاذقاً، ويعرف ما يُريد فيسعى إلى تحقيقِ مُرادهِ بمزيدٍ من الثقةِ بالنَّفسِ والإرادةِ الصُلبةِ فقد طَرحَ عليها الزَّواج، بَعدما حدثَّها بحكايتهِ، مختصراً سُبله، وبعد كثيرٍ من الأخذِ والرَّد والتساؤلات، قرَّرت زينب أنَّه رَجُلُهَا المُناسب، فوافقت على الزَّواجِ منه.

وأحمد الخَاني حينما كانَ صَبيَّاً بدأَ حياتَهُ مِنَ الصِّفرِ، فَهو ينحدرُ مِنْ عائلةٍ فقيرةٍ، إذ كان والده عاملاً بسيطاً في الشَّركةِ الخُماسيّةِ، ولأنَّه كان مُثقلاً بأعباءِ أسرةٍ مكونةٍ من ستةِ أفراد غيره، فلم يتمكَّن من الإنفاق على تعليمهِ أبَّانَ المرحلةِ الإعدادية، وبذلك فقد ودَّعَ أحمد الخَاني تحت ضغوط الحاجة حُلمَ طُفولتهِ بأن يصيرَ مُحامياً حينما أرسله والده ليتعلم حرفة يعيش من خلالِهَا على

عادةِ أهل بيلافور، وهكذا وجد أحمد الخاني نفسه يَعملُ صبيًّاً لدى تاجر حرير عجوز يمتُّ إليهِ بصلةِ قربى بعيدة، فكانَ أحمد الخاني عَالي الهمةِ وافر النشاط يُدرك أنَّ الحَّياة تحتاج إلى الكثيرِ من الكفاحِ والصَّبر.

وحينما اشتدَّ ساعده، وتصلَّب عوده تهيأت له فرصةً للسَّفر إلى الكويتِ، فَلم يتوانَ حيث آب من سفرتهِ تلك بمالٍ وفير، فافتتح متجراً خاصاً به في سوقِ الحرير.

وقد وجد أحمد الخاني في زواجه الأوَّل من ابنةِ عَمهِ هالة الخاني استقراراً لم يدمْ طويلاً إذ لم يُرزق من زواجهِ ذاك بالأطفالِ، وقد تبين إثرَ فُحوصاتٍ طبيةٍ عدَّة أنَّه غير قادرٍ على الإنجابِ، وحتَّى لا تظلَّ ابنة عمه دون أطفال، ومن خلال تربيته الدينيَّة النقيَّة، فقد قرَّرَ الانفصال عنها بعد أن شرح لها موقفهُ لتتزوج من بعده.

أمَّا هو فقد ثابر بعدها عازباً حتى بلغ الخامسة والأربعين من عمرهِ حينما عرض الزَّواج على زينب الحمصي، وقد صارحها بكل تفاصيل قصته تلك، فقبلت به زينب الَّتي كانت تبحثُ عن شريكٍ لها في أمورِ دنياها.

وهكذا، وبكثيرٍ من الفرحِ صارت زينب زوجةً للتاجرِ أحمد الخاني المعروف في سوقِ الحرير، فعاشت

سنواتها التَّالية في كنفهِ، فكان زوجاً عطوفاً رؤوفاً، وقد اعتبر بوازعٍ دينيٍّ عميق أنَّ جمال، الَّذي هو إبناً بالتبني لزينب، إبناً لهُ، فتبناه بشكلٍ رسمي، وأطلقَ عليهِ لقبه وبات ينفقُ عليه بسخاء.

وقد حرص أحمد الخاني على أنْ يتربى ابنه جمال على مبادئ الشَّريعة الإسلاميَّة، فأرسله منذ صغره إلى مدارسِ تحفيظ القرآن، وعمل جاهداً على تنشئتهِ بشكلٍ حسن، لا بل سعى إلى توريثه كلَّ ثروته من بعدهِ، وهيأ كلَّ المعاملات القانونيَّة اللَّازمة لأمرٍ كهذا، فصار جمال يتمتعُ بتلكَ البحبوحة الَّتي بات يَنعمُ بِها.

وقد نبغ جمال الخاني في مدارسِ تحفيظ القرآن، كما في دروسهِ، فتسلم العديد من الجوائزِ من هيئاتٍ دينيَّةٍ نتيجة لختمهِ القرآن، فبات بذلك على معرفةٍ بالكثيرِ من شيوخِ بيلافور، ويتردد عليهم في مساجدِهم فيجد في تواصلهِ معهم راحته وسلامهُ الداخليّ، ومن خلال ذلك كان جمال يثابر التشرُّب بالأفكارِ الإسلاميّة الَّتي كانت تروقهُ كثيراً.

إلى جانب ذلك فقد توخى والده أحمد الخاني، إحياءَ حُلمه القديم الموؤد بأن يُكمل ابنه جمال تعليمه الجامعي في كليَّةِ الحقوق بجامعة بيلافور، فكان له ما أراد، ولأنَّ المسرات لا تستمرَّ دون مُنغصاتٍ تعترضها، فقد تمَّ

استدعاء الفتى جمال الخاني أكثر من مرَّةٍ إلى الفروعِ الأمنيَّة في بيلافور للتحقيقِ معه حول نشاطاته الدينيَّة الَّتي كانت تتسارع باطرادٍ مع كلِّ ما كان يلمسه جمال من خرابٍ قد حلَّ بتَكمَاندو نتيجة استشراء الفساد، وغلوِّ المُفسدين، وتحكم الأجهزة القمعيَّة، ودورها المُتعاظم في إذلالِ النَّاسِ وقهرهم، حيث تمَّ احتجازهُ هنالك أكثر من مرَّةٍ، ولكنَّ مدَّة احتجازه في كلِّ مرَّة لم تكن تتجاوز الأسبوع، إذ سرعان ما كان يتمَّ الإفراج عنه حينما لا يثبت للجهاتِ الأمنيَّة أيَّة علاقةٍ لهُ بالتنظيماتِ السِّياسيَّة.

فصارَ جمال الخاني يُفكر على هذا النحو: أنَّ الإسلام هو الحلُّ الأمثلُ لكلِّ المَشاكل الَّتي تعانيها تَكمَاندو.

وخلال ذلك كانت زينب الحمصي تراقبُ كلَّ تحولات ابنها جمال بِحذرٍ، وتنصحه بأن يُحافظَ على الاعتدالِ لأنَّها هي ذاتها قد ترعرعت في بيئةٍ يسودها التسامح مع الآخرين في الشأنِ الدينيّ، وكان جمال يُطمئنها إلى أنّهُ يعرف سُبله في الحياةِ، وليس ثمَّة داعٍ لقلقها عليه.

(8)

كانت اللِّقاءات بينَ علي الرَّجوب وسُعاد الرَّاعي قد استمَرَّت طوال السنتين اللَّتين أعقبتا اختبارات الثَّانويَّة العامة، فكان علي في كلِّ لقاء له مع سُعاد يصير أكثر تعلقاً بها، وخلال ذلك كانت سُعاد قد أنجزتْ معهدها بنجاحٍ، فصارت معلِّمةً في المدرسةِ الابتدائيَّةِ لقريةِ القاسميَّة الَّتي تقع إلى الغربِ من محافظةِ الغَمقة، بينما صار علي في سنتهِ الثَّالثةِ من كليَّةِ الهَندسةِ المعماريَّةِ بجامعةِ "شَمال تَكمَاندو".

وما إنْ باعدَ بينهما المَكان بسببِ انصرافِ سُعاد إلى مهامِ التعليمِ في تلك القريةِ، حتَّى صار علي في غايةِ الشَّوقِ لرؤيتِها، وكانت ذكرياتُها تُحاصرهُ طوال الوقت، فما كان مِنه إلَّا أنْ أرسلَ إليها يقول:

معبُودتي سُعاد

اسمحي لي أنْ أكتب إليكِ عَنْ لهفتي، واشتياقي للقياك،

فأنا إذ أتذكركِ طوال الوقت لم يعد يمكنني احتمال أشواقي المضنية لوصالكِ العذبِ، فأيامنا التَّي أمضيناها معاً، وما تخللها من نعيم الحُبّ ما فتئت تؤكد لي أن عشقنا الَّذي رعيناه سويَّةً لا بدَّ أن يثمر ارتباطاً قدسيَّاً يؤلف بيننا دهراً من سعادة ننتظرها.

لم أزل كعهدك بي وفيًّا لِحُبّنَا الفريد...أعبدك سُعاد ... علي.

فما كان من سُعاد إلا أن أرسلت إليه ردَّها سريعاً:

حبيبي الغالي

أتذكرك في كل حين، وأحلمُ بكَ طوال الوقت، وأحنُّ إلى أيامي معكَ، وأنا الَّتي تثق بك ثقةً عمياء، قد أنسى كلَّ شيء، حتى ثَدي أميّ، إلَّا أنت صديقي وحبيبي الَّذي أرتجيه أن يكون الأبديّ.

يمكنك زيارتي، فقد اشتقت للقياك كثيراً، وأنا إذ أعملُ في قريةِ القاسميَّةِ، أعيش في وسط من النَّاس البُسطاء الطيبين الَّذين يقدسون الحبَّ، ويعشقون الحياة.

سأنتظرك يوم الخميس القادم حيث زميلاتي المُعلِّمات سيسافرن إلى بلداتِهم، وقد تدَّبرتُ أمري لأجل أن ألتقيك.

ملاحظة: حينما تصل إلى قريةِ القاسميَّةِ، لو تمَّ سؤالك عن هويتكَ أخبرهم أنَّكَ أخي، وسأتولى أمرَ التَّمهيد لزيارتك... أعبدكَ علي... سُعاد.

كانت القاسميَّة قرية من تلك القرى الصَّغيرة التابعة إلى الرِّيفِ الغربيّ لمحافظةِ الغَمقةِ، وتقع على السَّفحِ الشَّرقيّ لسلسلةِ الجبال السَّاحليَّة، ولا يتجاوز عدد سُكانها الألف

ومئتي نسمة، وهي تَتمدَدُ عند قدمِ ذلكَ الجبلِ ببيوتها الريفيَّة المشَّيدة في غالبيتها من الطينِ، في حين كانت تُشاهدُ من بعيدٍ بعضاً من البيوتِ المتناثرةِ المشَّيدة من الإسمنتِ المُسَّلح كتبقعاتٍ تُزركش ذلكَ النسيج العمرانيّ البسيط، فتزيده تألقاً وجمالاً.

ومنظر القرية، وهي تنساب من خلالِ السَّفح الأدنى لذلك الجبل الشَّامخ نحو السَّهل الماكث عند قدمهِ، يوحي بكلّ تلك البساطةِ والمهابةِ الفريدة، وقد كانت غابة من الأشجارِ الكثيفةِ تغطي سفوح ذلك الجبل فيبدو، والضَّباب قد كساهُ، لكأن السَّماء قد التحمت مع الأرض في جوقةٍ مُتناغمة من الحُسنِ الَّذي يُبهر الأبصار.

وصل علي إلى القاسميَّةِ بعد ظُهرِ يوم الخميس في العاشرِ من أيَّار، واستدَّل إلى مكانِ سَكن سُعاد بقليلٍ من الجُهدِ، فقد قادتهُ إليهِ صَبيَّةٌ حَسناء مِنْ صبايا القرية كانت ترتدي بنطالاً من الجينزِ يعلوه قميص من الساتانِ الأحمرِ، وقد كانت تحمل على كتفِها بندقيَّة صيدٍ خفيفةٍ، وحينما لفتت، بتَفردهَا، انتباههُ سَألهَا علي عَنْ اسمها فقالت، وابتسامة عذبة تغشى محياها:

- أنا اسمي جُمانة، وأنتَ مَنْ تكون؟

أجابها علي:

- أنا علي الرَّاعي، والمُعلِّمة سُعاد الرَّاعي هي أختي، فهل لكِ أنْ ترشديني إلى مكانِ سكنها؟

رحَّبت بهِ **جُمانة**، وقادته إلى مكانِ سَكنِ المُعَلِّمَة سُعاد الرَّاعي، وفي الطريقِ سألَها عن شأن تلك البندقية الَّتي كانت تحملها، فقالت:

- هذه بندقيتي، وأنا ذاهبة لاصطياد طُيور السُّمَن.

أوحى ذلك لعلي بأنَّ ثمَّة انفتاح على الحياةِ يغشى مجتمع قرية القاسميَّةِ، فأثنى على جُمانة الَّتي تابعت رحلة صيدها بينما تابع هو طريقه إلى منزلِ سُعاد الَّتي كانت في انتظارهِ، وقد ارتدت كامنها النَّهدي، وسرَّحت شَعرها الذَّهبيّ الطويل الَّذي عقصتهُ من الخلفِ بملقطٍ زهريٍّ على شكلِ فراشةٍ، وقد برزت حُلمتي نهديها الورديتين خلف كامنها كحبتي كرزٍ في أوج تألقهما يعلوهما نحر وجيد من المَرمَرِ صافياً كديمة رُخاميَّة بيضاءَ في سماءٍ رحبةٍ، وكان خداها متوهجين وشفتاها معقودتين كبراعم الجوري، فبدت في أوج جمالها وتألقها.

نظرت إليه سُعاد والخَفر اللَّذيذ يُداعبُ مُحياها، فتلقاها علي مُعانقاً، وذابا معاً في لحظاتِ نشوةٍ عارمةٍ، حتَّى إذا تمكنت سُعاد من الإفلاتِ من بينِ ذراعيه التفتت إليه، وقالت:

- لا بد أنَّك جائع، ما رأيك أنْ تتذوقَ طَعامي؟

- حقا أنَّني جائع، ولكنَّني أتمنى أنْ نستمرَّ في عناقنا دهراً.

قالت سُعاد، والخجل يلوحُ في وجنتيها:

- أيُّها العَاشقُ المُتيَّم، اتبعني إلى المطبخ إذن.

وقادته، من يده، إلى مَطبخِها البسيط، ثمَّ شرعا مَعاً في إعداد طعام الغداء، وبينما تولى علي فرم البقدونس والبندورة والخس والخيار والكزبرة والبصل، راحت سُعاد تقلِّب دجاجة سمينة في مقلاةٍ كبيرة، فكان بين الحينِ والحينِ يحتضنها، ويلثم جيدها وخديها المُوردين فتتوَّهج سُعاد خجلاً بينما هو يتوهُ في عوالمٍ لا تنتهي من المُتعةِ حيث يداه تجوبان عوالم الفتنةِ من خلالِ انتصاب نهديها.

انتهيا من إعداد الطعام، ففردته سُعاد على طاولتها، وجلست إلى جواره، وقالت:

- كنت متأكدة أنَّك ستأتي لزيارتي، ولهذا كنت في غايةِ السَّعادة، فهذا اليوم سيكون الأجمل في حياتي كلِّها.

قال علي:

- وهل يُمكنني ألَّا أجيء، وشوقي العارم إليكِ قد برَّح فؤادي؟ أعبدكِ سُعاد.

احمرَّت سُعاد خجلاً، وقبَّلته على خدهِ، ثمَّ أردفت تقول:

- إثرَ تناول طعام الغداء علينا أنْ نرتاح قليلاً، ثم سأصحبك في نزهةٍ إلى الجبلِ حيث المَناظر الخلَّابة.

قال علي:

- ليكن ذلك، ولكنَّني لا أفضل أنْ نمكثَ طويلاً هناك، فأنا في غايةِ الشَّوقِ لأن أظلَّ بقربكِ أطول مدَّةٍ مُمكنة.

ردَّت سُعاد وهي تختلسُ قبلةً من شفتيه:

- مهلاً أيُّها المتيَّم، فإن نزهة في الطبيعة الغناء تمنح الحب نكهة لذيذة.

ابتسم علي وهو يدنو منها، ويطبع قبلة على نحرها قائلاً:

- كما ترتأين حبيبتي، فأنا ملكٌ لكِ، وقد أسلمت إليكِ قيادي، وسعادتي بقُربكِ هي غاية طموحي ومُرادي.

أثناء ذلك كانا قد انتهيا من تناولِ طعامهما، فانشغل علي في لَملمَةِ المَائدةِ، وغسيل الأطباق، والأواني في حين كانت سُعاد قد أعدَّت ركوة القهوةِ، بالإضافةِ إلى قطعٍ من حلوى السُوكسي الَّتي كانت قد صنعتها بنفسها، وإثر

ارتشاف القهوةِ رقدا معاً فلم يغفل علي عن الاهتمام براحتها، فكان طوال الوقت يحتضنها، ويُقبّل رأسها ويستنشق عبير الأنوثة من جيدها بمزيد من الشَّغفِ، بينما كانت تغفو بين يديهِ كملاك.

رنَّ جرس المُنبه في تمام الرَّابعة عصراً، فاستيقظت سُعاد، ثمَّ ارتديا ثياب الخروج، وذهبا في نزهتِهما إلى الجبلِ الَّذي كانت الغيوم الرَّماديَّة تُكلِّل قمتهُ، والطيور تحلق فوقهما، فبدا المنظر شديد الفتنة والرومانسيَّة، ولم يتمالك علي نفسه فهمس لسُعاد، وهو يختلسُ قبلة من شفتيها:

- أعبدك يا ملاكي، وكم يسحرني أنَّك الآن إلى جواري وسط هذا المشهد البديع.

قالت سُعاد، والخفر يُلون خديها بالحمرة:

- حبيبي وأنا أعبدك، وأتمنى من كلِّ قلبي أن نظلَّ معاً عمراً يهبنا السَّعادة الَّتي نحلم بها طوال الوقت.

وعلى مسافةٍ غير بعيدةٍ منهما، عند أسفلِ الطريق المؤدي إلى الغابةِ، ظهر رجل أسمر طويل، ونحيل، يرتدي كلابية من البوبلينِ السكريِّ، ويعتمر كوفيةً رماديَّةً، فبدا كأنَّه ينتظر قدومهم إليه، وحينما أدركاه عرَّفتهُ سُعاد على علي بقولها:

- أخي علي الرَّاعي.

ثم أشارت إلى الرَّجل الَّذي وقفَ قبالتهما، وقالت:

- صديقي أبا أسعد الجُوراني، مُختار قرية القَاسميَّة، وهو من المُتنَورين القلائل الَّذين أعتزُّ بمعرفتِهم، وصُحبَتهم.

نظر المُختار إلى علي، وقال وهو يرسم ابتسامة على مُحياه:

- أهلا بكَ أيَّها الشَّاب، الآنسة سُعاد غالية علينا، وكذلك ضيفُهَا، فأهلاً، ومرحباً بكما.

رحَّبَ علي بدورهِ بالمختارِ الَّذي سَألهمَا عن وجهتهما، فأخبرته سُعاد أنَّهما في نزهةٍ للتمتعِ بسحرِ الطَّبيعة.

تَمنى المُختار لهمَا نزهةً موفقةً، ثم أردفَ قائلاً:

- يُسعدني أنْ تُلبيا دعوتي على العشاءِ في منزلي هذه اللَّيلة.

رحبا بدعوة المُختار، ثمَّ ودَّعاه، وتابعا صُعود الجبل، وحينما احتضنتهما أشجار الغابة الكثيفة، فغابت عنهما ملامح القرية، توقفا للاستراحةِ، وضاعا في لحظاتِ هوىً عاصف حتَّى إذا تنبها كانت الشَّمس قد غَرُبَتْ

تماماً، والظلَّام أوشك أنْ يرخي سدوله، فتوجها إلى بيتِ المُختار.

كان منزلُ المُختار الَّذي يقع في الجهةِ الغربيَّةِ من القريةِ مُشيَّداً من الإسمنتِ المُسَلَّحِ، ومؤلف من طابقٍ واحدٍ يحتوي على أربعةِ غرف واسعة حيث يفضي المَدخل العَريض إلى قاعةٍ كبيرة تقع على اليسارِ، وقد تم استقبالهم فيها حيث هَرعتْ أمّ أسعَد لملاقاتهم يَتْبَعُهَا زُوجها.

بدت تلكَ القاعة مؤثثة على نحوٍ مريح، ففي صدرها كانَ ثمَّة زوج من الكَنبات تفصلها عن بعضها طربيزات من خشبِ الزانِ المحفور بطريقة أنيقة، وكذلك كان بالقربِ من الجدارينِ الآخرين المُجاورين للبابِ كنبات وطربيزات من ذاتِ الطراز، فكان اللَّون البني الغامق لذلك الأثاث يضفي عليه مسحة من الوقارِ، بينما كانت تَتوَسَّطُ تلك القاعةِ طاولةٌ واسعةٌ للضِيافَةِ تصطف حولها كراسي أنيقة من الفولاذِ والإسفنج المَضغوط المُغطى بطبقةٍ أنيقةٍ من الجلدِ الناعم، ولم يمضِ سوى وقت يسير حتَّى صارت تلك الطاولة مُكتظَّةً بشتى صنوف الأطعمة حيث الجبن الطَّازج وزيت الزَّيتون والزَّعتر والزُّبدة والشنكليش والزَّيتون إضافة إلى التينِ المُجَففِ والخضار، وكان ثمَّة وعاء كبير في الوسطِ عامر

بشرائح اللَّحم المُحمرةِ، أما خبز التنور فقد تمَّ توزيعه على أطرافِ المائدةِ على نحوٍ أنيق.

ولم تمضِ سوى لحظات حتى دَعاهم المُختار إلى تلك المائدةِ قائلاً:

- تفضلوا على المَيسورِ، ولا شيء يُداني قيمتكم.

شكراه بدورهما، وتَمنيا لهُ الرَّخاء الدائم، وبعدئذٍ تحلقوا حول المائدة، فقال علي مُوجهاً حديثه إلى المُختار:

- قريتكم ذات طبيعة خلَّابة، وكذلك هي طبيعتكم، فمنذ وصولي شَعرتُ أنَّني بين أناس أعرفهم منذ زمنٍ بعيد، وأول مَنْ صادفت في قريتكم كانت جمانة تلك الفتاة الأنيقة الَّتي استرعت انتباهي، فقد أثار إعجابي وانبهاري بها أنَّها تتجرأ على حملِ بندقية، وتذهبُ إلى اصطياد طيور السُّمَن بمفردها.

انفرجت أسارير المختار لهذا الإطراء، فقال مُبتهجاً:

- جمانة هي الابنة الوسطى لأخي سَلمان، ومعروفة عندنا بشقاوتها، وشغفها بصيدِ الطيور، خصوصاً طيور السُّمَن، وهي دائما تخرج في نزهاتِ الصَّيدِ هذه الَّتي تستهويها، فنحن هنا نعيش حياتنا على البساطةِ، والمرأة لدينا ليست كما في المدينةِ حيث الكبت والتعقيد وعدم

الثِّقة يجلبان الشَّكِ والرِّيبة مما يجعل الحياة ممتلئةً بالنَّكد، فنحنُ نعشقُ الحياة ونحاول أن نعيشَها على سجيتنا فنتجنب التعقيد ما أمكننا إلى ذلكَ سبيلا.

قالت سُعاد مُعَقِبَةً على كلامِ المختار:

- حقاً إنَّ الأمر كما تقول يا مختار، فتجربتي في التعليم بقريتكم جعلتني أدركُ جيداً كم أنتم أناس رائعين، ولهذا فقد طلبت من أخي علي زيارتي ليحظى بشرفِ التعرُّف إليكم.

- رحَّب المختار بعلي مُجدداً، وكذلك فَعلتْ أم أسعد الَّتي قالت:

- من دواعي سرورنا الترحيب بأخيكِ علي، الَّذي يبدو فتاً طيباً، وأتساءَل أين يُعلِّم أخيكِ؟

ردَّت سُعاد:

- لا زال مبكراً عَليهِ التَعليم، فهو لم يزل تلميذاً يَتعلَّم، وسيكون مُهندساً معمارياً بعد سنتين كما نأمل ذلك.

فقالت أُم أسعد:

- ما شاء الله، ربي يسعدهُ، ويسعدكِ به، ويبقيه فوق رأسكِ يا أميرة.

التفتت سُعاد خِلسةً إلى علي غامزةً من طَرفِها، وبابتسامتها الخلَّابة توجَّهتْ إلى أمِّ أسعد، وقالت:

- علي هو الأخ والرفيق، وتعلقنا به أمر يبعثُ فينا الفرح والتفاؤل دائماً.

شَكرهم علي بدورهِ على إطرائِهم، وتمنى لهم الخيرَ والسَّعادة.

وفي تمام السَّاعة العاشرة مساءً توجها، سُعاد وعلي، بالشكرِ إلى لمختارِ، وزوجتهِ على كرمِ الضِيافَةِ، ثمَّ استأذناهما بالانصراف، وغادرا منزل المختار معاً.

وإثرَ وصولهم إلى منزلها قالت سُعاد مبتسمةً، وهي تخاطب علي:

- لقد انطلت عليهم كذبتنا البيضاء أنَّك أخي، وقد ساعد في ذلك أنَّكَ تُشبهني بعض الشيء، ولكنَّهم ربما سيدركون الحقيقة لاحقاً، فبعد غدٍ حينما تصل زميلاتي المُعلمات ستبدأ التساؤلات.

قال علي، وهو يبتسم:

- لا عليكِ فلن يتمكنَّ زميلاتك من رؤيتي، فأنا منذ صباح الغد سأغادرُ إلى جامعتي في "شمال تَكمَاندو".

ابتسمت سُعاد، وقالت بغُنجِها المَعهود:

- يا لك من مخادعٍ مَكَّار، لقد ولعتني بك، وأخيرا سَتسافر.

أجاب علي مبتسماً:

- وهل ثمَّة خيارٌ آخر؟

قالت سُعاد وهي تجري بعض الترتيبات على سريرها:

- ربما لا يوجد الآن خيار آخر، ولكن إياكَ أن تبتعد عنِّي طويلاً، فأنا غيورة جداً، واشتاق قربكَ دائماً.

احتضنها علي وقال في عذوبة:

- وهل بمقدوري الابتعاد عنكِ؟ فأنا أعبدكِ سُعاد أنتِ جنتي ونعيمي.

ضحكت سُعاد راضيةً، ومن ثمَّ مَضتْ تُهيء سريرها للنومِ. كان ذلك في حوالي الحادية عشرة قبيل منتصف اللَّيل، وعلى عادتهم فقد كان كلُّ من في قريةِ القاسميَّةِ قد استسلموا للنومِ العَميقِ، بينما علي وسُعاد فقد تَجَرَّدَا تماماً من ملابسِهما، فاحتضنها علي، ومضى بها إلى الحَمَّام وهي عاريةً تماماً، وتطوق عنقه بذراعيها، وتَلُفُّ فخذيها على خصرهِ، ثمَّ قام كل منهما بتدليكِ جسد الآخر بالماءِ

الدافئ والصَّابون، وبعدئذٍ قادتهُ سُعاد إلى سريرها، فنعما معاً بليلتهما المُثيرة الطَّافحة بالمسراتِ إذ فَعلا كلّ ما خطر لهمَا من مُتعِ الحُبِّ باستثناء الحرص على عذريةِ سُعاد الَّتي حافظا عليها بحذرٍ وانتباهٍ، ولم يغمض لعلي جفن حتَّى الخامسة صَباحاً، وحينها جذبها إليه إلى أن التصق ظهرها العاري بصدره، فنعم إلى جسدِها الأنثوي البديع بنومٍ لذيذٍ لم يعهد له مثيلاً في حياتهِ كلِّها.

وحينما استيقظ، في التَّاسعةِ صباحاً، كانت سُعاد لم تزل شبه عاريةٍ، وهي منهمكة في إعدادِ طعام الفطور، فطوقَها بذراعيهِ من خصرِها وشدَّها إلى صدرهِ، وفي نعيمِهما هذا جلسا إلى المائدةِ فتناولا مَعاً طعامَ الفطور حتَّى إذا حلَّ موعد رحيله احتضنها بين ذراعيهِ، وغاصَ في ثغرها بقبلةِ وداعٍ مُثيرة، وانهالت دموعها مدرارة، فَقَبَّل عينيها وجبينها، ثمَّ انصرف، فكانت صورتها تلوح له وسط دموعها الَّتي انسابت لؤلؤاً على وجنتيها حينما كان يحث خطواتهِ إلى الطريقِ العام، حيث غَادرَ في أوَّلِ حافلةٍ إلى مدينةِ **الغَمقة**.

(9)

كانتْ الحياةُ الاجتماعيَّة، والسياسيَّة في تَكمَاندو قد شهدت الكثيرَ من التراجعاتِ عن المكتسباتِ الَّتي حققها حزب تكماندو للكادحِين، في عهودٍ سابقة، فقد استشرى الفساد، وعمَّت البلاد موجةً من المَحسوبيات، فغدا كلُّ أمرٍ يحتاجُ واسطةً، أو رشوةً لبلوغهِ، واستمرَّ الحال كذلك مترافقاً مع موجاتٍ من الغضبِ والاحتقان الشَّعبيّ المَكتوم، إذ سئمَ عامةُ النَّاسِ حياتهم، حتَّى أوشكت تلك الأحوال المُتفاقمةِ أنْ تُفضي إلى ثورةٍ شعبيَّةٍ عَارمة لولا أنْ أخرَّ ذلك وقوع حدثٍ جَلل، إذ فقد حزب تكماندو قائده العَسكريّ "الرمز" على حينِ فَجأةٍ بسببِ الوَفاةِ غير المتوقعةِ، وبغية الاستمرار في تثبيتِ دعائمِ الاستقرار إلى الأَبدِ، وكما جرت العادة في هذا الشَّرق، فقد تمَّ تنصيب نائبه في حزبِ تَكمَاندو خلفاً لهُ على سُدَّةِ الرِّئاسة، ولتمرير مِحنَة التَّوريث الَّتي لاقت رفضاً صامتاً من عموم المواطنين، ولامتصاص الغضب الشَّعبيّ الَّذي كان متفاقماً، فقد عَملت العقول الأمنيَّة بدهاءٍ على الترويجِ لمسألةِ الديمقراطيَّةِ ومُكافحَةِ الفَساد في ظلِّ القيادةِ الفتيَّةِ الجديدة، فتمَّ بالفعلِ تخفيف القبضة الأمنيَّة إلى حدٍ بعيد، وجرى القبض على بعضِ اللُّصُوصِ الفاسدين، من المتنفذِين في أجهزةِ الدَّولةِ،

فاستبشرَ النَّاسُ خيراً بالعَهدِ الجديدِ كما شعروا بحريَّة لا عهد لهم بمثلِها.

فازدهرت الحياة السِّياسيَّة في عمومِ تَكمَاندو، وانتشرت المُنتديات المَدنيَّة، وشرعَ النَّاس يناقشون كافة المسائل بما فيها السِّياسيَّة بكلِّ جرأة، بينما كان ذلك من المحرماتِ في عهودٍ سابقة، فدخلَ في خَلدِ النَّاس حينها أنَّ العهدَ الجديد قد أعلنها ثورةً حقيقيَّةً على كلِّ مخلفاتِ العَهد السَّابق، و قد كان يمكن التعويل على تلك الظاهرة الثَّوريَّة لإنقاذ تكماندو مِمَّا قد حلَّ بها لاحقاً من ويلاتِ الحروبِ الداخليَّةِ، أمَّا وقد اتَّخذت تلكَ التجربة مع مرور الوقتِ منحىً بات يُشكلُ خطراً مُحدقاً على امتيازاتِ الأجهزةِ الفاسدة العَميقَة لدولةِ الحزبِ الواحدِ، فقد عملت تلك الأجهزة على إجهاضِها، فسرعان ما صدرت الأوامر من الجهاتِ العُليا في الدَّولةِ إلى الأجهزةِ الأمنيَّةِ لمُمارسةِ دورها السَّابق المُعتاد في التضييقِ على الحريَّاتِ العامةِ، وهكذا سيقَ السِّياسيون الأحرار من كبارِ المُثقفين، الَّذين تجرأوا على إبداءِ آرائهم في السِّياساتِ الفاشلةِ لسُلطاتِ تَكمَاندو، مجدداً، إلى السجونِ، وبذلك فقد أُفسِحَ المَجال رحباً أمام تَجدد حلقات الفَساد، والاستبداد وتعاظمها، فبدأَ القائد الشَّاب يفتقر من جديدٍ إلى الدَّعم الشَّعبيِّ الَّذي ما كان لهُ لولا تلك التجربة الموؤدة، وسارعت الأزمات تفاقمها، وباتت الغالبية من

مواطنِي تكماندو دونَ القدرةِ على العيشِ والاستمرارِ في ظلِّ تنامي عدد المَحظيين من المُقربِين من رموزِ سلطة حزب تَكمَاندو، الَّذين التهموا خيرات البلاد، فتركوا خلفهم الخَراب واليباس.

كلُّ ذلك كان قد وَضعَ حزب تَكمَاندو من جديدٍ أمام مأزق وجودي صَعب لعَلهُ الأخطر منذ استلامه قيادة تَكمَاندو لأوَّل مرَّة في ستينياتِ القرنِ المُنصرم.

إذ تمَّت عبر وسائط التواصل الاجتماعيّ، في ربيعِ العام الحادي عشر لاستلام القائد الشَّاب مَهام الرِّئاسة، الدَّعوة للنزولِ إلى الشَّارعِ، في تظاهراتٍ سلميةٍ، للمطالبةِ بإصلاحاتٍ كان حزب تَكمَاندو ذاته قد أقرَّها في مؤتمرٍ سابقٍ لهُ، ولكنَّها ظلَّت، بسببِ تَعارضهَا مع مَصالحِ الفاسدين في الدولةِ، طيَّ الأدراج.

ومن أوائل الَّذين قاموا بتحدي سُلطات تَكمَاندو في تلك التظاهرات رُوَّاد المنتديات المَدنيَّة، ورموز الأحزاب السِّياسيَّة ذات المَنحى اليساريّ الثَّوريّ، وأغلبهم ممن كانوا قد قضوا فترات طويلة سابقة في سجونِ سُلطات تَكمَاندو، فكانَ الرَّد الأمنيُّ المجرَّبُ بانتظارِهم، فلم تتنازل سُلطات تَكمَاندو أمام هذا المدِّ الشَّعبيّ عن أيٍّ من مكاسبِها بل راهنت على إرغامِ الحراك الشَّعبيّ على استخدامِ العُنف المُسَّلحِ، وتحت تأثير القَمع بالرَّصاصِ

الحيّ للمتظاهرين، من قبلِ سُلطات تَكمَاندو، بات الحراك الشَّعبيّ ينحرفُ عن مسارهِ السِّلميّ خصوصاً بعدما انخرطت فيه الجماعات الإسلاميَّة المُتشددة، وعلى رأسِها الإخوان المُسلمين، وهكذا وجدنا تَكمَاندو قد تحولت إلى حلبةِ صراعٍ مسلحٍ دمويٍّ مُرعبٍ انخرطت فيه إلى جانبِ التنظيمات الإسلاميَّة المُتطرفةِ الأطراف الإقليميَّة الدَّاعمَة لتلكَ التنظيمات، وبينما كانت الصِراعاتُ المُسَّلحةِ محصورة في جنوبِ وغربِ البلاد، فقد امتدت لتعمَّ وسط وشمال وشرق تَكمَاندو، وباتَ الوضع جحيماً لا يُطاق. وفي هذه الأثناء ظلَّتْ مدينة مَكاندو وريفها بحكمِ الامتزاج والتعايش الثَّقافيّ لكافة الأديان والمذاهب فيها، تنعم بهدوءٍ لا يمكن إلا أنْ تُحسَدَ عليه، فغدت بذلك ملاذاً آمناً ينشده الفَّارون من مناطقِ الصِّراعِ المُلتهبة.

وخلال السَّنة الثَّالثة لتلك الحرب المُستعرة تعرضَ منزل أحمد الخاني وزوجته زينب الحمصي في العاصمةِ بيلافور إلى هجومٍ بالطيرانِ الحربيّ شنته قوات السُّلطة في تَكمَاندو ممَّا أدى إلى دمارِ منزلهم بالكاملِ، ووفاة زينب وزوجها أحمد الخاني مُحترقين تحتَ الأنقاض في حينِ نجا جمال الخاني الَّذي كانَ وبمحضِ الصُّدفةِ متأخراً في مَكتبهِ، فَفرَّ هارباً إلى مَكاندو.

وقبيل ذلك بمدَّة وجيزة كانَ الأستاذ أحمد الأسمر، باعتباره أستاذ جامعي معدود على فئةِ العلمانيين، قد تلقى تهديدات بالتصفية على يدِ المُتشددين من أنصارِ التنظيمات الإسلاميّة، ولكنَّه ثابرَ حياته المُعتادة غير مكترثٍ بذلك إلى أنْ لقى مصرعه في حادثةٍ أليمة، إذ بينما كان يقود سيارته متوجهاً إلى عملهِ في كليَّةِ الاقتصادِ والتجارةِ بجامعة بيلافور استوقفه حاجز أمني، ولكنَّه ما لبث أنْ أدركَ، وبعد فوات الأوان، أنَّه حاجزٌ مموهٌ للمتشددِين الإسلاميين، فأمروه بإخراج بطاقته الشَّخصيَّة وما أنْ تعرَّف قائدهم على شخصيَّتهِ حتَّى ألقى على عناصرهِ أمراً بإعدامهِ فوراً، وحاول الأستاذ جاهدا التحرك سريعاً بسيارتهِ لكنَّ زخات من الرَّصاصِ كانت قد أجهزت عليهِ تماماً فقضى نحبهُ، وإثر ذلك الحادث المريع لم تلبث زوجته نجوى، الغارقة في أحزانِها، أن فارقت الحياة، بعد شهرين من استشهادِ زوجها، أمَّا ولديهِ فائز وإسماعيل فقد فرَّا هاربين إلى دولةٍ أوربيَّةٍ، وبينما كانت ابنتيه الأخريين ماريا وسوزان قد تزوجتا واستقرتا في بيلافور، فرَّت ابنته سلمى إلى مَكاندو لتستقرَّ فيها في منزلٍ متواضع كان والدها قد اشتراه قبيل وفاتهِ بمدَّةٍ وجيزة.

وهكذا استمرَّت في مَكاندو العلاقات بين جمال الخاني وسلمى الأسمر تلك العلاقات الَّتي كانت قد توطَّدت في بيلافور.

وقد تمكَّنَ جمال الخاني بعد مدَّةٍ وجيزةٍ من لجوئهِ إلى مَكاندو من تأمينِ عمل لهُ في مكتبِ زميلٍ لهُ هو المُحامي **حَسَّان المصري** كما تمكَّن، من خلالِ ثروةِ والده الَّتي آلت إليهِ بالوراثةِ، من شراءِ منزل جميل بالقربِ من حديقةِ مَكاندو، وقد كان علي الرَّجوب صديقاً للمحامي حسَّان المصري ويتردَّد إليه في مكتبهِ بساحةِ مَكاندو من حينٍ لآخر ومن خلالِ ذلك تعرَّف إلى المُحامي جمال الخاني فصارا صديقين حميمين، خصوصاً بعدما تعرَّفا إلى صلةِ القُربى الَّتي تَجمعهُما مَعاً، وقد تجاهل علي الرَّجوب، بفطنتهِ، تلك القصة الَّتي انطبعت في ذاكرتهِ، منذ طفولتهِ، عن خالتهِ زينب، وذلك اللَّقيط المُلقى إلى مصيرهِ في العراء.

(10)

كان علي الرَّجوب قد أوشك أنْ ينهي سنته الأخيرة بكليّة الهندسة المعماريَّة حينما اندلعَ الصِّراع المُسلَّح في تَكمَاندو، وكانت تُحاصرهُ ذكريات حبِّه لسُعادَ الَّتي لم تكن تفارق خياله، وحينما باتَ لا يطيقُ صبراً على ابتعادهِ عنها أرسلَ إليها رسالته التالية:

معبودتي سُعاد

في ردهاتِ عطرك ثَمل أنا، فلا متعة تجاوز سقفك المسكون بالمدى المضمَّخ بالورودِ.

يكويني لراحتيكِ الحنين، وكلُّ هذا التَّأنق قد جعل من عُبورِي لثغرِ أُنوثتكِ أوديساً يجتازُ بحارَ اللَّهفة لثغرِ بانلوب الحريق.

أنتظرهُ هطولكِ طلَّاً يُراوِغ بمزيدٍ من الفتنةِ لوعتي، وصبابتي، وعشقيَّ العَاصف لكلِّها كنوز أنوثتكِ، الَّتي سكنتني، فلم أعد أقوى على حياةٍ أنت لست فيها، انتظره منكِ لقاءاً قريباً يروي ظمئي المجنون إليكِ ... أعبدك سُعاد ... علي.

وما لبثت سُعاد، الَّتي كانت تنتظر بفارغ الصَّبر انتهاء عامها الدِّراسيِّ لتتفرغ إلى عشقها الَّذي أمَلتهُ مصيراً من نعيمِ الوصلِ، أن أرسلتْ ردَّها سريعاً على رسالةِ علي:

حبيبي علي

وصلتني رسالتكَ، فأنا أسيرة هواك، وأقصى مرادي لُقياك، وأشتهيك بكل كياني وروحي، وأنتظره لقاءنا قريباً، فالعام الدراسي قد أزفَ على الرحيل وبعد أسبوع على أبعدِ تقديرٍ سأكون في مَكاندو، حيث سنلتقي، ونخطط لأمر مستقبلنا معاً، وكم أتمنى أنْ تتهيأ لنا كلَّ الظروف المناسبة لإعلانِ عقد قراننا في هذا الصَّيف، لكي ننعم معاً بحبنا الَّذي ارتجيناه نعيمنا الأبديِّ.

ملاحظة: حينما أكون قد صرت في مَكاندو سأرسل إليكَ رسالتي التاليَّة، وحينها سأتدبر أمرَ لقائنا وأُخبرك بذلك سريعاً.

أعبدك علي ... سُعاد.

ولكنَّ شاءت الأقدار أنْ تكون تلك رسالتها الأخيرة، فحينما انقضى العام الدراسي، وبينما كانت سُعاد الرَّاعي مع مجموعةٍ من زميلاتها، وزملائها المُعلِّمين في الرِّيف الغربيِّ لمحافظةِ الغَمقةِ، يستقلون حافلتهم في طريقِهم إلى مَكاندو، قادمين من قريةِ القاسميَّةِ، فاجأهم مُسلحون

من تنظيمِ الدَّولةِ الإسلامية، على ذلكَ المُنعطف الجبليّ الَّذي يفصل بين الغمقةِ والقاسميَّة، وحين علموا أن سُعاد وزملاؤها ينتمون إلى مدينة مَكاندو، الَّتي اعتبروها، من خلالِ تصنيفاتهم الطائفيَّة، مواليةً للسلطةِ في تَكمَاندو، أجهزوا على كافةِ الرُّكاب الذُّكور برصاصِهم، بينما اقتادوا المُعَلِّمَات كسبايا، وغنائم إلى جهةٍ مجهولةٍ، بعدما أضرموا النيران في الحَافلةِ الَّتي كانت تُقلَّهم.

وبسبب الحريق، الَّذي أتى على الحافلةِ بكاملِها، وجعلها بمن فيها رماداً تذروه الرِّياح، فقد دار في خَلدِ من شاهدوا ذلك الحَّادث المريع أنَّ جميع ركابها قد لقوا حتفهم.

وهكذا شاع الخبر في مكاندو أنَّ سعاد الراعي وزملائها قد لقوا حتفهم في تلك الحَّادثة المُرعبَة.

شَكَّل هذا الحَدث الأليم انتكاسةً صاعقةً لأحلام علي الَّذي كان ينتظرُ الصَّيف بفارغِ الصَّبرِ ليعقدِ قرانه على سُعاد، فوقع نتيجةً لذلك ضحيَّة اكتئاب حاد، وقد رافقه ذلك زمناً طويلاً إلى أن تمكَّن العديد من أصدقائهِ من إخراجه من حالتهِ تلك بصعوبةٍ بالغة.

(11)

كان عدنان عواد شاباً فارع الطول، خشن المَلامِحِ، أسمر البشرة، وعيناه السوداوان تنمان عن قسوةٍ بالغة، وبشاربهِ الأسود الكثيف، وشعره الأجعد، كان يبدو كنجمٍ من نجومِ السينما، وكان قد تزوج من إسعاف الرَّاعي الأخت الكبرى لسُعاد الرَّاعي، والمَعروف عن عدنان عواد أنَّه كان كثيرُ الاهتمام بتنميَّة ثروتهِ عَبرَ كلَّ السُّبل، وإذ كان يمتلك شركةً لصناعةِ الأدوية ورثها عن والدهِ، فقد قام بتطويرها ورَفدِهَا بالمواد الطبيَّةِ، النَّادرة في السوق المحليَّة، وبكلِّ المعايير فقد بات من الأثرياءِ المعدودين في مَكاندو.

وفيما مضى حينما اجتاز عدنان عواد المرحلة الثَّانويَّة من تعليمه اكتفى بذلك، وانطلق مُبَكِّراً إلى سوقِ العمل في شركةِ والدهِ، فاكتسب بذلك خبرةً لا يستهان بها في مجالِ صناعة الدَّواء ما جعله، دون أخوتهِ، مثار إعجاب والده الَّذي، ولهذه الأسباب، كان قد أوصى بأن تكونَ شركته من بعده خالصةً لابنهِ عدنان.

ولأسباب ذاتيّة محضة فقد استمرَّ عدنان عواد طيلة حياته مُعارضاً يساريَّاً ثوريَّاً للسلطةِ الحاكمةِ في تَكمَاندو، وقد تعرَّضَ للاعتقالِ مرَّات عدَّة في حياتهِ

جرَّاء ذلك، فَصارَ هذا سبباً كافياً لاستمرارهِ في نَهجهِ الَّذي اختطه لحياتهِ تحت تأثير ردة الفعل الطَبيعيَّة.

وقد نشأت بين علي الرَّجوب وعدنان عواد صداقة وطيدة بحكم الصِّلات الَّتي كانت تجمعهما إذ أوشكا أن يكونا نَسِيْبَين، وكثيرة هي المرَّات الَّتي حاول فيها عدنان عواد استقطاب علي الرَّجوب إلى صفِّه في اليسارِ الثَّوريّ ولكنَّ محاولاته كلَّها قد باءت بالفشلِ، فقد كان علي الرَّجوب محافظاً على استقلالهِ من الناحيَّةِ السِّياسيّةِ، فهو يعتبرُ أنَّ التنوير هدفهُ الأسمى، الَّذي يسعى لأجله، بعيداً عن الانتماءاتِ الحزبيَّةِ، فقد أدركَ مُبَكِراً أنَّ كلَّ السُّبل قد أوصدها حزب تَكمَاندو بخبراتهِ الأمنيَّةِ المُزمنَّةِ في كفِّ فعل النَّاس، والتضييق على حريتِهم، وملاحقتهم بشتى السُّبل في سبيل جعل المواطن أمام خيار وحيد، لا بديل له، فحتَّى تستمرَّ آمناً على حياتكَ يتوجب عليكَ أنْ تتجنبَ الانتماءات السِّياسيَّة باستثناء الانتماء إلى حزبِ تَكمَاندو الرَّسميِّ الَّذي كان يربأ بنفسهِ عنهُ، على حين كان عدنان عواد كما جِيْلٍ كاملٍ من شبابِ تكماندو، وقد ترعرعوا منذ نعومة أظفارهِم في ظلِّ حكم حزب تَكمَاندو يُحاكون منهج ذلك الحزب في الحَّياةِ الخاليَّةِ من أيَّةِ إمكانيَّةٍ للحوارِ المَوضوعيِّ، فلم يعتدْ هذا الجيل سوى أنْ يفرضَ رأيهُ بالقوةِ، وكأنَّه يتماهى تماماً مع السُلطَةِ الَّتي يُناصِبَهَا

العَداء، وكان قد نشأَ حينها في تَكمَاندو العديد من الأحزابِ اليساريَّةِ الثَّوريَّة، وفي أدبياتهم بدل أن يُمارسوا الديمقراطيَّة الَّتي ادَّعَوا أنَّها بُغيَتَهُم في نهايةِ المطاف، فقد راحوا يلتهمون بعضهم بعضاً بشراسةٍ مُنقطعَة النَّظير، فَعِوَضَ أن يُركزوا على مُناهضةِ السُلطَةِ الَّتي ينعتونها بالمستبدَّة، فقد شرعوا في جدالاتٍ نظريَّةٍ بحته عن أسبابِ خيانةِ الحَركة الثَّوريَّة، وشتى المذاهب التعليميَّة الأخرى للماركسيَّةِ اللينينيَّةِ، تلكَ الجدالات الَّتي لم يكنْ الشَّارع يَعيها كثيراً، وربما لا تحفل بها سوى النُخبة المُثقَفَةِ في تَكمَاندو، فكانَ هؤلاء اليساريون الثَّوريّون، كنتيجة حتميَّةٍ لابتعادهم عن قراءةِ الواقع بتروٍ ومُوضُوعيَّة، يَتبَجَحُونَ بقدراتهم الذاتيَّة الَّتي طالما ضَخَمُوهَا أكثر بكثير من حقيقتها في واقعِ الأمر، فتوهموا أنَّهم قادرون على قلب وتغيير النِّظام الحاكم في تَكمَاندو، وأنَّ أمراً كهذا قريبُ المَنال، فأوهموا، بذلك، جيلاً كاملاً من الفتيان، الذين غَرَرُوا بهم، بأنَّهم هم دون سواهم البديل الواعد لنظام الحكم في تَكمَاندو، ومن الغريبِ أنَّ كلَّ تجمعٍ من هذه التجمعات اليساريَّة الثَّوريَّة كان يعتبر أنَّ كلَّ ما سواه خارج عن تعاليمِ ماركس وأنجلس، أو لينين، وأثناء ذلك كانت سُلطات تَكمَاندو تلاحقهم جَميعاً باعتبارهم خارجين عن القانون الَّذي

فَصَّلتهُ سُلطات تكماندو ليكون حِصناً منيعاً يركنَ خَلفَهُ الفساد والاستبداد.

وذاتَ يوم أقدمَ عدنان عواد، بالاتفاق مع علي الرَّجوب، على القيامِ بخطوةٍ لاختراقِ جدران الكآبة الَّتي كانت تُخيِّم على مجمل الحياة في مَكاندو بسببِ تلك الحَرب المُستعرَة بتخصيص يوم الاستراحة الأسبوعيَّة، الَّذي هو يوم الجمعة من كلِّ أسبوع، للتنزهِ في الطبيعةِ من خلال سيران أسموه سيران الياسمين.

وحينما طرحا ذلك، على معارفِهما، لاقت فكرتهم استحساناً من العديد من شُبان وشَابات مَكاندو، وممَّا سَهَّل لهم المُضي في ذلكَ أنَّه بفضلِ بعض الحكمة، الَّتي كانت نادرةً خلال تلك الحرب الهمجيَّة، فقد نَعِمَتْ مَكاندو بسلامِها النسبيّ كما لو أنَّ ثمَّةَ اتِّفاق، غير مُعلن، بين طرفي الصِّراع لتحييدها، فكان سيرانهم لهذا الصَّباح باتِّجاهِ قلعة مَكاندو الأثريَّة، ومُبَكِّرين مع مجموعةٍ من الأصدقاءِ كانوا في ذلك الطريق المُعَبَّد الَّذي يُفضي إلى القلعةِ الأثريَّةِ حيث تَحفُّ الأزهار بجانبي الطريق، والهواء العليل قد أفلحَ في جعلِ مزاجهم في أوجِ تَحفزِهِ للسيرِ مشياً على الأقدامِ، وقد كان من بينِ الرِّفاق في هذا السيران المُحامي جمال الخاني، وبرفقتهِ سلمى الأسمر، تلك الشَّابة المُشْبَعَةِ بالحياةِ والحيويَّةِ، والَّتي جَذبتْ إليها،

بلباقتها وحسنها، اهتمام مُعظم الرّفاق في سيرانِ الياسمين منذ لحظةِ تواجدها بينهم.

كانت القلعةُ الأثريَّة، المتموضعة في الجهةِ الغربيَّةِ من مَكاندو، تقع على ذروةِ جبلٍ متوسط الارتفاع، وهي عبارة عن بناءٍ قديم مُتوسط الضَّخامةِ من الحَجرِ الاندفاعيِّ البَازْلتيِّ، وتحيط بهِ حُفرة مستديرة عند أسفلِ جسم القلعةِ، كتحصينٍ دفاعي.

وكان ذلك الجبل يتسنمُ بساطاً أخضراً من الأشجارِ والنباتاتِ البريَّة، وثمَّة غابة منبسطة، متوسطة الكثافة، تقع قبالتهِ، فتغري بالتوغلِ فيها، وحين وصولهم تفرَّق الرِّفاق، في شعاب الغابة، إلى مجموعاتٍ، فكانت المجموعة الَّتي تضمُّ علي الرَّجوب تضمُّ أيضاً كلٍّ من سلمى الأسمر وجمال الخاني وعدنان عواد، كما انْضَّمتْ إليهم المُعَلِّمَة **مريم القاضي**، وهي في نحو الأربعين من عمرِها، سمراء بدينة، ولكنَّها نشيطة تَعشقُ المَرح والرَّقص، وتُفضِّل تزجيَّة الوقت دون إثارةِ المتاعب، كذلك انضم إليهم شابٌ طويل نحيل أسمر اسمه **أكرم الزيدان**، وهو يتمتع بقدرٍ كبير من النباهةِ، فتحلقوا على الأرضِ، فيما يشبه المائدة، مُستعدين لتناول مشروب المَتةِ الصَّباحيَّة.

وفي هذهِ الأجواء الخلَّابة، حيث امتد أمامهم سهلٌ متعرِّج فسيح يكسوه بساطٌ أخضر، ويفضي في نهايته إلى قدمِ ذلك الجبل الَّذي تعلوه القلعةُ الأثريَّة، افتتح علي الرَّجوب جلستهم تلك مخاطباً الرِّفاق:

- كم تبدو الحياة جميلة برفقتكم، في هذه الطبيعة الخلابة، فتأملوا معي، ونحن نمتلك مثل هذه الطبيعة السَّاحرة، كيف أنَّنا قد فشلنا في الحفاظ عليها، ففاجأتنا هذه الحرب المُدَّمرة لتُظهِرَ مدى الإخفاق الفظيع الَّذي نُعانيه إذ نقوم بتخريبها بقسوةٍ عبر كلِّ هذا العُنف المُنفلت من عقاله.

عقَّب جمال الخاني بالقول:

- نعم، فما يحلُّ بنا يعتبرُ نكبةً بكافةِ المعايير.

تابع علي حديثه قائلاً:

- وبسببِ عوامل عديدة، يأتي الجَهل في مقدمتها، فقد أتيح المناخ المُلائم لاستمرار الفاسدين في تقويضِ أسس حياتنا، وسحق كلِّ أملٍ لشعبنا في العدالةِ والحريَّة.

لاحت على وجه جمال الخاني ابتسامة ساخرة، وهو يقول:

- وأولئك الَّذين حملوا راياتهم السِّلميَّة، للمُطالبة بأبسط حقوقهم في الحياة والعمل والحريَّةِ، لم يلقوا أيَّة استجابة

من سُلطاتِ تَكمَاندو الَّتي بدت في حالةِ تجاهل تام لكلِّ ما يحصل، ولو أنَّ تلك السلطات قد أقدمت على إصلاحاتٍ محدودة من أجلِ إرضاء تلكَ الجماهير الغاضبة لجنبت تَكمَاندو كلَّ هذه المآسي.

غرق علي قليلا في الصَّمت، وبعد أن ارتشف رشفة من كأس المتة قال:

- نعم ذلك ما حصل بالضبط، وحينما أرادت سلطات تَكمَاندو شيطنة الحراك الشَّعبيِّ، بحمله على استخدامِ العُنف المُسلَّح، تَعمَدَّت إطلاق سراح قادة وكوادر القوى الظلاميَّة المُتمثلة بالأخوان المسلمين من سجونِها، فجعلت منهم نواةً لكلِّ أولئك المُتطرفين الَّذين توافدوا عَبرَ حدودِ تَكمَاندو، من شتى بقاع الأرض، تحت ذريعة الجِّهاد، ونصرة الإسلام، ومثل هذا الإجراء فاقم الأوضاع، وجعلَ السَّاحة تنفتح على كلِّ هذا الجَحيم المُنفلت من عقالِه.

أشعل جمال لفافة تبغ كانت في يدهِ، ثمَّ توجَّه إلى علي قائلاً:

- أنتَ تطرح مسألةً خلافيَّة في غايةِ الأهميَّة، فالإخوان المسلمون يشكلون قُوةً على الأرضِ لا يمكن تجاهلها في أيِّ حراك ثوريٍّ يهدف إلى تغيير السُلطة في تَكمَاندو،

بل أنَّ زجَّ قادتهم وكوادرهم في السُّجونِ، تلك المدَّة الطويلة، كان بحدِّ ذاته عَملاً بَربَريَّاً بشعاً.

ابتسم علي، وقال:

- لا أحد يُنكر فساد السلطاتِ في حكومة تَكمَاندو، فهذا أمرٌ مُسلَّمٌ به، ولكنْ لنرى في الجانب الآخر هل الإخوان يبتغون نقلنا إلى نظام العدالةِ والديمقراطيَّة الَّذي نصبوا إليه؟ أم أنَّهم يتحينون الفُرص لإقامةِ دولة الخِلافة الإسلاميَّة، الَّتي يعتقدونها الحلَّ الأمثل لكلِّ قضايا الأمَّة الإسلامية، ونحن نعلم تماماً أنَّ دولة الخِلافة الَّتي يبتغونها إنْ هي إلَّا محاكاة حَرْفيَّة للدَّولة العباسيَّة، أو العثمانيَّة اللَّتان كانتا من أكثر الدُّول استبداداً، وخرقاً لحقوق الإنسان في تاريخنا كُلِّه.

تدَّخلَ عدنان عواد، الذي كان غاضباً، وهو يقول:

- علي أنتَ لست أقل استبداداً بآرائك من السلطةِ الحاكمة في تَكمَاندو، فكيف تُنكر على فصيلٍ مثل الأخوان المسلمين حقَّهم في مُحاربةِ سلطةٍ فاسدةٍ مُستبدةٍ، وهم كفصيل سياسيٍّ، يمثلون شريحة الأكثريَّة من سُكان تَكمَاندو، كما أنَّه بغير التنسيق معهم لا يمكن لأي حراك ثوريٍّ أن يُثمر عن نتيجةٍ تُذكَر، لأنَّهم القوة الأكثر انتشاراً، وتنظيماً، واستعداداً للقتال في سبيل العدالةِ

والحريَّة، أمَّا أنَّهم يُنادون بدولة الخلافة الإسلاميَّة فذلك حقَّهم الطبيعيّ، وإذا كنَّا حقاً ديمقراطيين فلندعهم يأخذون موقعهم حتَّى لو تسلموا زمام السُلطَةِ في تَكمَاندو.

ابتسم جمال الخاني، وبعدما ارتشف الماء من كأس كانت أمامه قال مُعضداً رأي عدنان عواد:

- نعم إذا كنَّا نَدَّعي الديمقراطيَّة، ونسعى إليها، فَلنُسَلِّمَ بوصولِ الأغلبيَّة إلى دفَّةِ السلطةِ، لندع الأخوان يفعلون ذلك، ففي الدِّين الإسلاميّ الحنيف، إذا تمَّ تطبيقهُ، الحَلَّ الأمثل لكلِّ مشاكل الأمَّة.

تريث علي قليلاً قبل أن يتوجه إلى جمال بالقول:

- ولكنَّ الإخوان المسلمين ليسوا أهلاً لأن يمثلوا إسلام النبيَّ مُحَمَّد، فهم مجرَّدِ تنظيمٍ سياسيٍّ مُتشددٍ، يتلطى خلفَ شعارات إسلاميَّة، وتدعمَهم أكثر الفِئات ثراءً ورجعيَّةً في المجتمعِ، كما يحوزون على دعمِ مُعظم مشايخ النَّفط في الخليجِ العَربيّ، وكذلك مُساندة الاستخبارات الغربيَّة، وهنا مَكْمَن الخطر الَّذي تلمَّسه شعبنا، فباتَ متردداً في دعمِ حِراكهم، لأنَّه يدرك تماماً أنَّ فصيل مثل الإخوان المسلمين لا يمكنه سوى جرَّنا إلى استبداد دولة دينيَّة، وقد عانى شعبنا الأمرَّين في المناطق الَّتي خضعت لسيطرة الإسلاميين خلال هذه

الحرب، فجماعات الحِسبة كانت ولا زالت تعمل على خنقِ كلِّ الأصوات الحرَّة المُستنيرة، وبات الذَّبح والقتل كابوساً مُرعباً جعل أغلب النَّاس يهرعون إلى مناطقِ السلطَةِ الحاكمةِ، اتقاءً لشرورِ هؤلاء الإسلاميين وغُلوّهِمْ، مُستَجيرِين من فداحةِ ظُلمِ تنظيم الدَّولة الإسلاميَّة ومُسلحيها.

ردَّ عدنان عواد بشيء من الغضب:

- أتَعلَم علي أنْ لا أحد يُمكنهُ التَضليل كمثلكَ أنت، فتلك الفصائل الَّتي تنتمي إلى تنظيمِ الدَّولةِ الإسلاميَّةِ لا تُمثل الإخوان المسلمين بحالٍ من الأحوالِ، بل أولئكَ هم حالة فريدة بعيدة كلَّ البعد عن إسلام النَبيّ مُحَمَّد.

- ولكنَّهم في كلِّ منشوراتهم، الَّتي لا زالوا يبثونها عبر وسائطِ إعلامهم، قد أعلنوا بأنَّهم دولة إسلاميَّة على منهج النُبوة، ولعلَّه بسببِ ذلك لم يشأ أي فصيل إسلاميّ تكفيرهم، أو التصدي لهم، حتَّى الإخوان المسلمين تجنبوا ذلك، بل حتَّى الأزهر كمؤسسة دينيَّةٍ إسلاميَّةٍ معتبرة، قد التَمَسَ لهم الأعذار، ولم يشأ تكفيرهم، وذلك يعني بالمُحصلةِ أنَّ الإخوان المسلمين، في نهايةِ المطاف سيسعون أيضاً، لإقامة ذات الدَّولة الدينيَّة، حينما يتمكنون من ذلكَ، فالمنهج والمِثال واحد من حيثِ الجوهر، وإن تعددت تجلياته، وسنعيد معهم ويلات

تجاهل الآخر، وصناعة الاستبداد، ولكن هذه المرة تحت راية الدين، وهنا مكمن الخطورة.

قال جمال:

- إذا كان ثمَّة فريق، كتنظيم الدولة الإسلامية، قد ضلَّ السَّبيل، فلا يمكننا أن نأخذ الآخرين بجريرتهِ، فلم نسمع قط أنَّ الإخوان المسلمين قد قاموا بأفعالٍ مُشابهة عبرَ تاريخهم.

تنهد علي، معبراً عن مدى خيبة أمله فيمن يحاورهم، ثم قال:

- ولكنَّهم قد فعلوا ما هو أكثرَ حماقةً، وبشاعةً من ذلك، ففي الثمانينات من القرنِ المُنصرم اشتهرت تلكَ المَجزرة الشَّنيعة الَّتي قام بها أحدُ أبطال الإخوان المسلمين، ذلك الَّذي كان ضابطاً برتبة نقيب في جيش السُلطَةِ، وسأتحاشى ذكر اسمه ترفعاً، وهو إذ كان ذات يوم ضابطاً مناوباً في كليَّة المَدفعيَّة الواقعة شمال تَكمَاندو، فقد جمعَ في صالةِ ندوة الكليَّة كافة العناصر الَّتي لا تنتمي إلى طائفته الدِّينيَّة، وبعد أن أحكمَ إقفال الأبواب عليهم، وعبر نوافذ تلكَ الصَّالةِ، بدأ ومجموعته، من تنظيم الإخوانِ المسلمين، بإطلاق نيران البنادقِ والقنابل عليهم بكثافة، فكانت مجزرةُ تطهيرٍ عرقيٍّ

رهيبةٍ راح ضحيتها العَشرات من خيرةِ شبابنا، وقد وقف خلفها الإخوان عَلناً دون مواربة، وإثرَ ذلك انفتحت البلاد على شلالاتِ العُنف، الَّذي استمرَّ لأكثرِ من عامين، حيث كانت الاغتيالات، الَّتي مارسها الإخوان المسلمين، تَطال كلَّ عقل مُفكر بحجَّةِ أنَّهُ علمانيّ، أو لا ينتمي إلى طائفتهم الدِّينيَّةِ، فهذا النَهج التكفيريّ يرفضه شعبنا بقوةٍ، ولا يمكنه القبول بهِ تحت أيَّة ذرائع كانت.

ابتسمت سلمى الأسمر الَّتي كانت تتابع حوارهم باهتمام، وقالت:

- إنَّ لي إضافة أرجو أنْ تسمحوا لي بها.

واستطردت حينما بدت عليهم ملامح الاهتمام بما ستقوله:

- ربما أنا لست مثقفة كما يجب، ولكنَّني أحاول أن أعيش الحياة بوعيي النظيف، غير المُغيَّب، وكيما نكون على صِلةٍ وثيقة بالحياةِ، وبما ينسجم مع ما نَصْبُوا إليه من عدالةٍ وديمقراطيَّةٍ، فعلينا أنْ نُنَاهضَ كلَّ تلك القوى الَّتي تدعم الفكر الاستبداديَّ وتشجعهُ، حيثما وجدت، وعلى رأس هذه القوى الأخوان المسلمين، فهم بتاريخِهم المتشدد، ونمط تفكيرهم المُتصلب قد شكلوا الحاضنة

الأساس لكلِّ هذا العُنف الَّذي يُمارسهُ الآن تنظيمُ الدَّولة الإسلاميَّة.

أمَّنت مريم القاضي، التي كانت تتابع الحوار باهتمام، على كلامِ سلمى الأسمر، وقالت:

- نعم، فأنا، كمواطنة عاديَّة، أشعر بأنَّ الإخوان لا رصيد لهم في تَكمَاندو، فكلُّ المجازر البشعة بحق شعبنا، وخلال تاريخنا كلِّه، قد كانوا هُم خلفها، ثمَّ أنَّنا نعيش في مجتمع تعددي، مؤلف من مُختلفِ الأديانِ والطوائفِ والمَذاهبِ والمِلَل، ولا يمكن للإخوان بفئويتهم ونهجهم الطائفي سوى نسف أسس تعايشنا من الجذورِ كنتيجة حتميَّة للَعنةِ الطائفيَّة الَّتي شرَّشت في عقولهم.

ردَّ عدنان عواد غاضباً:

- يَبدو أنَّكُم جَميعَكم مُتحاملون عَلى هؤلاءِ، ولا تريدون أنْ تَقتنعوا أنَّهم استفادوا مِنْ تَجاربهم السَّابقةِ، فقد تغيَّر نَهجهم، وهم كَغيرهم الآن، مِنْ القِوى الثَّوريَّة، يَنشدون تحقيق العَدالةِ والديمقراطيَّة في تَكمَاندو، فقد صَرَّح المُشرف العَام للإخوانِ المُسلمين، مِنْ لندن، أنَّهم يَبتغون إقامَة دولةٍ مدنيَّةٍ ديمقراطيَّةٍ، ولا يَنوون الاستئثار بالسلطةِ في حالِ وصولِهم إليها.

قال جمال معبراً عن رأيه بذلك:

- والحال كذلك، فإنَّني أجدُ مِنْ التَّجني أنْ نُحاكم فَصيل سِياسيّ عَلى أخطاءِ المَاضي إذا كانَ يُقاتِل الآن سلطات تَكمَاندو في سبيلِ تحقيق الديمقراطيَّة، وإقامة الدولة المدنية العادلة.

تناول علي رشفة من فنجان قهوته، ثم قال:

- إن ذلك التصريح ليس سوى مجرد تضليل، فالإخوان لا يمكنهم تبديل نَهجَهُم، لأنَّهم إن فَعلَوا لصاروا غير ما بنوا عليهِ ثوابتهِم الفكريَّةِ والفِقهيَّةِ، وأنكروا أصولهم، فشعاراتٍ مثل تطبيق الشَّريعة الإسلاميَّة وإقامة الحدود، واحياء دولة الخلافة، لم تزل هي الثَّوابت الأساسيَّة الَّتي تفرز وعي هؤلاء وسلوكهم الفعليّ، وهذا بالذَّات لا ينسجم مطلقاً مع عصر الحداثة والديمقراطيَّة، فنحن لا نطمح إلى استبدال استبداد حداثيّ، بآخر سَلفي، فطموح كهذا سيجرنا عشرات القرون إلى الوراء.

عقَّب أكرم الزيدان بقوله:

- أنا، كمنتمٍ لحزب تَكمَاندو، أرى أنَّ الإخوان هم النقيض لكلّ تقدمٍ وتطور، فهم ضد الفكر القومي العربي الذي يُناصبونه العَداء التَّاريخيّ منذ يزوغه، ولا أحد لم

يطلع على تجربتهم مع الرئيس الراحل جمال عبد الناصر في مصر، ومحاولاتهم المتكررة لاغتياله، لأنه كان يجسد تياراً عربياً قومياً، وبالتالي فإنَّ موقف حزبنا المُعادي لهم بشكلٍ جذريّ هو الموقف السَّليم.

وفي محاولة منه لتغيير مجرى الحوار قال جمال موجهاً حديثه إلى علي مُتجاهلاً ما قاله أكرم الزيدان:

- ولكنَّ تُراثنا الإسلامي، بحدِّ ذاته، يُعتبرُ مُشرِّفاً، فمن الجاهليَّة إلى الإسلام، كانت نقلة حضاريَّة جذريَّة، جعلت من الإنسان مركزاً للكونِ، والإشعاع الحضاريّ، بهدي تعليمات ديانةٍ كريمة سمحة.

تأمَّله علي ملياً، ثمَّ قال:

- لسنا بصدد مناهضة إسلام النبيّ مُحمَّد، الذي ينطوي على النزعات الإنسانيَّة، والنفحات الصُّوفيَّة، والماديَّة أيضاً، وقد ألهَمَ ذلك العديد من المفكرين على ساحةِ الشَّرق، كالمفكر والباحث حسين مروة، وهذا لا يُمكن التَّنكر له، ولا تجاهله، فلولا ذلك لما كنَّا قد تمتعنا بالفكرِ الجميل للمتصوفِ الإسلاميّ مُحييّ الدِّين بن عربي.

ولكن يحق لنا أن نعيد النظر بذلك الفقه الحاقد المتراكم، الذي أنجزه بشر مثلنا، بعد وفاة النبي بقرون، ذلك الفقه الذي يحرض على العنصريَّة، والفئوية، والمغالاة،

والتطرف، وهذا بالضبط ما لا زالت تقوم به الجماعات الإسلاميَّة المُتطرِّفة على ساحة الوطن تحت راياتِ جبهةِ النُصرةِ، وتنظيم الدَّولة الإسلامية ومن حذا حذوهم.

ردَّ جمال غاضباً، وقد أثاره استشهاد علي بالمتصَّوفة:

- ولكنَّ فِكرَ المتصَّوفة، الَّذي تُحدثنا عنه، هو بالذَّات الَّذي شَتتَ شمل الأمَّة، وجعلنا نَغرقُ في كبائرٍ لا حصرَ لها من الإلحادِ والزَّندقةِ، والكفرِ الصَّريح، فهؤلاء المُتصَّوفة قد ابتعدوا عن ثوابتِ الشَّريعةِ الإسلاميَّة، وقد تمَّ تفنيدهم، وتكفيرهم من قبلِ كافةِ المَراجع الإسلاميّة المَرمُوقة.

أسند علي مرفقيه إلى ركبتيه، وبعدما تناول جرعة من الماء قال:

- للأسف، فالكثيرون من دعاة الشَّريعة، لم يتركوا واحداً من المجددِين في إسلامِ النبيِّ مُحَمَّد، ومن نوابغِ الأمَّة، ومُفكريها، إلَّا كفروه من ابن رشد إلى ابن عربي إلى ابن سينا إلى الحلَّاج إلى الفارابي وغيرهم كُثر، ولهذا باتت رسالة النبيِّ مُحّمَّد، بما صنعه هؤلاء بها، غريبة تماماً عن عصرِنا، فقد حَفرَ أولئك المتشددين قبراً سَلفياً لتلكَ الرِّسالة.

وعلى نحوٍ مراوغ قال عدنان عواد موضحاً رأيه بهذه المسألة:

- هنا بالذَّات أنتَ تقولُ الحقيقة، فالتكفير، ودعاته كانواَ سيفاً مُسلَطاً على رقابِ المُفكرين المُجددِين على مرّ العصورِ السَّالفةِ، ولكنْ والعَهد قد تقادمَ على ذلكَ فيجدر بنا أن نعترفَ بأنَّ ثمَّة تطويراً لا يستهان بهِ قد أخذت به فئات على قدرٍ عظيمٍ من الأهميَّةِ، ولا يمكننا أنْ نُغمطَ فئاتٍ كهذه حقَّها بدعوى تَجاوز المَاضويَّة.

أشعل جمال لفافة تبغ كانت بيده ثم قال:

- دعاة الشَّريعة هم ورثة علوم النبيّ، وحاملو رسالته الأصليَّة، دون تحريفٍ، إلى اللَّاحقين من أبناءِ الأمَّةِ الإسلاميَّة.

كان جمال يدأب على القولِ بالأمَّة الإسلاميّة، وليس العَربيَّة في إشارةٍ ذات دلالة إلى القِيم الدَّعويَّةِ الإسلاميَّة الَّتي نشأ عليها، وتشرَّب بها.

تناول علي من فنجانه رشفة من القهوة، ثم قال:

- دعني اختلف معكَ يا صديقي، إذ علينا كي نناصر رسالة النبيّ الكريم مُحَمَّد أن نرتقي بإسلامه الموروث إلى سوية عصرنا الرَّاهن، فنُجَدد رسالته، كي نكسب

بذلك عقول وقلوب البشر، وهذا بالذَّات ما قد شَرع الكثير من المتصوَّفة في إنجازه، بتطوريهم لتلكَ الرُّوحانيَّة الثَّاويَّة في عُمقِ الدَّعوة المُحمَديَّة، بهدف جعلها تفيض حبًّا لكافةِ مخلوقات الرَّب، فالدَّعوة الروحيَّة لإسلام النبيّ مُحَمَّد لن تستكمل تطورها اللَّاحق إلا بتجريدها عن شروطِ نشأتها، البَدويَّة العُنصريَّة المُتطرِّفة، التي كانت وليدة زمانها، ومنسجمة مع ذلك الزمان، أي بجعل رسالة النبي محمد تستوعبُ مُستجدات عصر العلومِ، والفلسفةِ الإنسانية، وتتجاوز ما كان منها يخص زمانه فقط، أي الإبقاء على روح الرسالة المحمديَّة، وتخليصها من الفقه المتوارث، فحتى تزهر الشجرة عليك تخليصها من أغصانها اليابسة، وبغيرِ ذلك سَتموت تلك الرِّسالة المَحكومة بشرطِها التَّاريخيّ.

ردَّ جمال ممتعضاً:

- ولكنَّ تلك الرِّسالة قد أثبتت جدارتها، وحيويتها في أنَّها قد انتشرت بشكلٍ مُطرد على مرِّ العُصورِ، والأزمنةِ حتَّى باتَ لدينا في عالمِ اليوم ما يتجاوز المِليار مُسلم، ويستمر هذا الانتشار متصاعداً في حين تنحسرُ العلمانيَّة، ومعها الإلحاد كسلعةٍ فاسدة.

لوح علي، بيده تعبيراً عن أنه ضاق ذرعا بحوار قد بات عقيماً، ثم قال:

- ليس العبرة بالعدد، فأولئكَ المِليار مُسلم الَّذين تُباهي بهم، ينتشرونَ في أكثرِ بلدانِ العالمِ تَخلفاً، ثمَّ إنَّ ذلك الانتشار يدعمهُ بترو دولار مَشايخ النَّفط العربيّ الَّذي يُنفَقُ بسخاءٍ لشراءِ الأنصار، وإغراق العالم في نفقٍ مُظلمٍ عبر نشر الدَّعوة الوَهابيَّة الَّتي تجعل إسلام النبيّ مُحَمَّد مُنقطعاً عن السِّياقِ الكونيّ كلِّه، فاعتماد تكفير الغير، واعتبار القتل سبيلاً لنشر الدعوة، قد بات أمراً مخالفاً لروح عصرنا الحالي. أمَّا العلمانيَّة الَّتي تناصبها العَداء، وتتهمها بالإلحاد، دون مبرر، فهي الَّتي سَهَّلتْ على أولئكَ المُسلمين في القارة الأوربيَّة أسباب حياتهم، ومنحتهُم الحريَّة في تطبيقِ شَرائعِهم، وهو ما لم يلاقوه في بلدانهم الأصليَّة الَّتي تدَّعي الإسلام.

وبدا جمال محتداً حينما قال:

- في كافة الأحوال، لا يمكنك الترويج للعلمانيةِ في بلدٍ غالبيته من المُسلِمين.

وبشيء من الاستياء قال علي:

- وبغير انتهاج العلمانيَّة كَحَلٍ جذريّ لمُشكلاتنا السِّياسيَّة والاجتماعيَّة، فلا مُستقبل لنا. ويجدر بنا التذكير بأن العلمانيَّة، خلافاً لما يشاع عنها، ليست ضدَّ أي دين من الأديان، بل تحترم حريَّة الإنسان،

وتمهد له الظروف الموضوعيَّة لتحقيق إنسانيَّته على أكمل وجه.

عقَّبت سلمى الأسمر، الَّتي كانت قد شرعت لتَّوِهَا، وبعض الرِّفاق، في الاستعدادِ للعودةِ إلى مَكاندو، بقولها:

- والآن، وقد انتهى وقت السيران لهذا اليوم، فهل لكم أنْ تساهموا معنا في جمعِ أمتعتنا تأهباً للانطلاق باتِّجاه مَكاندو.

لملموا أمتعتهم، وانطلقَ الرِّفاق في طريقِ العودة إلى مَكاندو، فسارت سلمى الأسمر إلى جوارِ علي الرَّجوب، وقالت:

- استمتعتُ بحواركَ مع الرِّفاق، ويسرني أنْ اثنيَّ على فكركَ الجميل، ولكنَّ جمال أيضا بيده الحق، فلولا إسلام النبيِّ مُحَمَّد لما كانت لنا تلكَ الأمجاد السَّالفة، ولما كنا قد حافظنا حتَّى الآن على لُغتنا الجميلة لولا القرآن الَّذي حفظها من الضَّياع، وأنا منذ نعومة أظفاري أقرأ عن أمجادِ بني أميَّة والخِلافة العباسيَّة، حيث عهد القوة والإشعاع الحضاريِّ الَّذي نُباهي بهِ أمم الأرض قاطبةً.

نظر علي الى سلمى بابتسامة طافحة بالألم، ثم قال:

- بيدكِ حقٌّ من حيث الحفاظ على اللغة، وأهمية كتاب الله في ذلك الشأن، وهذا لم يكن يوماً موضع خلاف، أما خلا ذلك فأوكد لك أن تلك النماذج من الدول الإسلامية، التي خلت، لم يكن هدفها الحفاظ على كتاب الله، بل حكم أمة محمد بالحديد والنار، أما من أتوا بعدهم فقد أعموا أبصارنا وبصائرنا عبر مَناهج مدرسيَّة مُضللة تمجِّد تلك الدُّول، الَّتي ما كانت في جوهرها سوى دولٍ مُستبدةٍ استغلت راية الدِّين الإسلاميّ، وخِلافة النبيّ الكريم، لإخفاء وجهها الحقيقيّ، فبالرغم من كل العلوم التي ازدهرت في ظل حكم تلك الدول، فقد ظلَّ الواقع الاجتماعي والسياسي في سكونه المستبد، ولأنَّ التَّاريخ يكتبه المُنتصرون، ولأنَّ ذلك التَّاريخ يَخدُم السُلطات المُستبدةِ عبر العُصورِ، فهو لا زال يُدَّرس في مناهجِنا باعتبارهِ ذروة تطورنا، وغاية مبتغانا غاضين الطرف، عمداً، عن كونِ أمم الأرض قاطبةً تسير بخطواتٍ متسارعةٍ نحو تحقيق السَّبق الحضاريّ في كافةِ مناحي الفكر والفلسفة والعلوم الوضعيَّة، بينما نحن لم نزلْ نُمارسُ نومنا الحَضاريّ في حضن استبداد شرقي مزمن مقيم.

ابتسمت سلمى، وقالت:

- رغم سِعة ثقافتكَ، فأنتَ مُفترٍ كبير.

عبر علي عن اندهاشه بما اتهمته به سلمى، فقال متسائلاً:

- ولماذا أنا مُفترٍ، هل لأنَّني لا أرغب في أن أكون ظلاً لأولئكَ الَّذين ما زالوا وهم في أجداثهم يتحكمون بعالمنا؟ علينا إذا شئنا مُجاراةَ أممِ الأرضِ، الَّتي سبقتنا أشواطاً، أنْ نعيش عَصرنا، لا أن نظلَّ غارقين في ماضويَّة لا تقدِّم أيَّ أمل لنا في بناء مستقبلٍ مُشرق.

قالت سلمى الأسمر مُستنكرةً:

- ولكن لا مستقبل لأممٍ نسيت ماضيها، أو تجاهلته.

نظر علي ملياً في عيني سلمى، ثم قال:

- هذا صحيح، ولكن دورنا نحن في أن نُغربلَ ذلكَ الماضي، للاحتفاظِ بما هو قيِّمٌ فيه، ويُفيدنا في بناءِ مُستقبلنا، أمَّا الحصى والحجارة، والطَميِّ الفاسد، مما يقف سداً منيعاً في وجه تطورنا اللَّاحق، فيجدر بنا التخلي عنه، فقد آن لنا أن نتخلى عن النمط الاستبدادي للدولة، هذا النمط الذي يلاحقنا، ويخسف الأرض بنا، منذ ألف وأربعمئة عام ونيف.

في هذه الأثناء كان جمال قد تمكَّن من اللَّحاق بهما، وكانت علائم السرور تبدو على محياه حين قال لعلي مستفزاً إياه:

- أرأيتَ فتنة الخلق في هذهِ الطبيعة المُتناسقة الغنَّاء، والَّتي تشي في كلِّ نأمةٍ فيها بتواري "صَنيع" الخالق العظيم خلف كلِّ شجرةٍ، وكلِّ حجرٍ وكلِّ طيرٍ وبشر، وأنتم العلمانيون ما فتئتم تكذبون بآيات الله البينات.

وقد نَمَّ جمال بذلك عن سذاجةٍ واضحةٍ، فهو لم يميز بين الإيمان الحقيقيّ بوجودِ خالقٍ، وهو أمرٌ لا خلاف عليهِ، وبين العلمانيَّة الَّتي لا تَدفَع ذلك الإيمان، ولا تُدافِعُ عَنه.

نظر علي إلى جمال نظرة اشفاق، ثم قال:

- سأتجاهل اتهامكَ المُبطَّن للعلمانيَّةِ بالإلحاد، وأُضيف إلى قولك بأنَّ "اللهَ ذاتهُ"، وليس صنعتهِ فحسب، يتجلى في كلِّ فراشةٍ مُلونةٍ، وكلّ نسمة عابرة، وفي التواءات الشَّال لحلوةٍ لم تزلْ تحاولُ ولوجَ عوالمَ الفتنةِ، بينما يتربصُ بها رجلُ دينٍ مُنافقٍ، فالإيمان بالجمال وبالخالقِ الجميل يختلف تماماً عن دعاوى الجُهال من شيوخِ الفتنة الَّذين لا يرون الله ما لم يكن على شاكلتِهم، يتربص بمخلوقاته الدوائر للإيقاع بهم، وأمثال هؤلاء يتلهفون للبطشِ بكلِّ هذا الجمال الَّذي تُحدثُ به.

امتعض جمال الخاني فقال:

- ولكنَّ اللهَ ما كانَ ليُعبدَ لولا رجالٌ يتخذون قضيتهُ على عاتقهم.

توقف علي عن السير، لأنَّه قرر أن يقص عليهم حكاية ذات عبرة، وطلب إليهم التريث قليلاً، ثمَّ قال:

- وأي إلهٍ هذا الَّذي يُرغم النَّاس، قسراً، على عبادتِه؟ لندع النَّاس يعبدون الله، ويتقربون إليه كما يشعرون هم به، فهذا أسلم من قسرِهم على عبادةٍ مُجافية لفطرتهم، إليكَ قصةً، ذات مغزىً عميق، بهذا المعنى:

"مرَّ النبيّ مُوسى بأحدِ الرُّعَاةِ، فَسَمعَهُ يُخاطِبُ اللهَ قائلاً:

- إلهي يا مَنْ تَصطَفي مَنْ تَشاء، أين أنتَ حتَّى أُصبح خادماً لكَ، فَأُصلح نعليكَ، وأُمشِط شَعر رأسكَ، وأَغسل ثِيابكَ، وأقتلُ ما بِها من القَملِ، وأحمل الحليب إليكَ أيُّها العَظيم، وأقبِّل يدكَ اللَّطيفة، وأمسح قدمكَ الرَّقيقة، وأُنظِّفُ مخدعكَ حين يجيء وقت المنام يا من فداؤكَ كلَّ أغنامي، ويا من لذكركَ حنيني وهيامي.

فغضب موسى، حينما سمعَ هذا الكلام الَّذي تفوحُ منهُ رائحة التَّجسيد، وقال للرَّاعي:

- لقد أصبَحتَ بهذا الكلامِ كافراً، والله غاضبٌ عليكَ، وسَيعذبكَ في نارِ جَهنَّم.

فقال الرَّاعي:

- يا موسى لقد ختمتَ على فَمي، وها أنتَ قد أحرقتَ بالنَّدمِ روحي، ومزَّق الرَّاعي ثيابهُ، وتأوَّه، ثم انطلقَ إلى الصَحراءِ هائماً على وجهِه.

فنزل الوَحي على موسى يقول:

(لقد أبعدتَ عنِّي واحداً من عبادي، وقد أرسلناك لتجذبَ العِبادَ إلينا، لا لتبعدهم عنَّا، نحن لا ننظر إلى الظَّاهر واللِّسان، بل ننظر إلى القلبِ، والحال).

وحينما سمعَ موسى كلام الرَّب هرعَ وراء الرَّاعي مُوغِلاً في البيداءِ، وحينما أدركهُ، قال له:

- ابشر لقد نَزلَ فيكَ وحيٌ، أنتَ حرٌّ في أنْ تقولَ مَا تشاء، فقل ما طفحَ بهِ قلبكَ المُحترق، فإنَّ كفركَ هو إيمانكَ، ودينك."

هذه الحكاية تبين بوضوح أنَّ الله يتجلَّى لعبادهِ بطرقٍ مختلفة، وكلُّ واحد منهم يُفسِّرُ رؤيته بالتَّفسير الَّذي يتجلَّى له، ومن المخالف لطبيعة الأشياء أنْ تُكَّفر أحداً من البشرِ، فقد قال تعالى:

" قضى ربُّكَ ألَّا تَعبُدوا إلَّا إيَّاه"، وكثيراً ما يستخدم المتصوفة آية كهذه لإثبات أن الإنسان لو بقي على فطرته فلن يعبد سوى خالقه، مهما تنوعت سبله إلى ذلك.

كانت المُعَلِّمَة مريم القاضي تتابع حوارهم، فعقَّبت تقول:

- الله محبَّة، ومن عرف السَبيل إليها فقد عرف الله، أمَّا أولئك المُوغرة صدورهم بالحقدِ على مخلوقاتِ الرَّب، فلا يحق لهُم التَّحدث باسمه.

هنا افترَّ ثغر سلمى الأسمر عن ابتسامة، وقالت:

- مرحى لكم لقد حاضرتم بما فيه الكفاية، ألا ترون أنَّنا قد شارفنا على الوصولِ إلى سَاحةِ مَكاندو؟

كانت الشَّمس تبعث الدِّفءَ، والغيمات تراودها كلَّ حين فتتوارى قليلا ثم تعود لتنير عالمهم بأشعتها، والطريق خلفهم يتعرَّج نحو مَكاندو، وقد دبَّت فيه الحياة حيث تحفُّ به الأزهار من كلِّ جانب، وكلُّ شيء يبدو في غايةِ الاكتمالِ والرَّوعةِ، وسلمى لم تزلْ تسير إلى جوارِ علي فكانت بابتسامتها الفاتنة تزدهرُ كما الطبيعة ذاتها.

فخاطبها علي مغازلاً:

- وأنت سلمى الَّتي تضفين على كلِّ هذا الجمال سحراً، ألا ليتنا نُحكم بالأنوثةِ، لأنَّها الأقرب إلى استكمال هذه الجوقة المتناغمة من جمالِ الخَلق، وسحره.

قالت سلمى، وهي تبتسم، وعلامات الدهشة تغشى محياها:

- مَهلاً أيُّها الأستاذ، ولكنَّكم أنتم الذُّكور من جحدتم فضل الأنثى منذ بدءِ الخليقة، فأغرقتموها بكلِّ هذا السَيل من افتراءاتكم، ولولا ذلك لما كان يسودَ عَالمنا كلَّ هذا الحقد والضغينة.

فسألها علي، وقد شارفوا على الافتراق، أنْ تَمدَّه برقمِ هاتفها، وقال مُعللاً ذلك:

- لكي أكون مُطمئناً أنَّنا سنلتقي قريباً، إذ أشعر بالحاجةِ إلى التَّحدث إليكِ كثيراً.

مدَّت سلمى يدها إلى حقيبتِها، فأخرجت ورقة صغيرة من دفترِها الأنيق، ثمَّ دوَّنت عليها رقمُ هاتفِها، وأعطت الورقة لعلي، ثم تركته، وراحت تسير مع جمال الخاني.

(12)

كان علي الرجوب قد انقطعَ، لأسباب تتعلق بانشغالهِ بالعملِ، عن سيرانِ الياسمين مدَّةً طويلةً، وذات مساء كان ضجراً من العملِ الروتينيّ في مكتبهِ، وإذ كان الجو حاراً، وكلُّ الأشياء تَبعثُ على السأم، قرَّرَ الذَّهاب إلى مقهى الزَّاويَّة الواقِع في غربِ مَكاندو، قريباً من حديقتِها العامة، حيث اعتاد من حينٍ لآخر أن يُمضي وقتاً هنالك يتناول خلاله قهوته المسائيَّة، ويدردشُ مع الأصدقاء، وما أن دلفَ إلى صالةِ المقهى حتَّى لمحَ جمال الخاني وسلمى الأسمر، وقد كان مظهرهما يوحي بتعكر المزاج.

ألقى عليهما السَلَّام، وحينما دعياه إلى الجلوسِ برفقتهم لبَّى دعوتهم بعد أن طلبَ قهوته.

كان يبدو أنَّ ثمَّة أسباب قد جَعلت الهُوة تتسع بين جمال وسلمى، إذ كان جمال راغباً في مُغادرةِ تَكمَاندو إثرِ استدعائه من قبلِ السُلطات الأمنيَّة، عدَّة مرَّات، للتحقيقِ معه بصددِ تُهمة تتعلق بانتمائه إلى أحدِ فصائلِ المُعارضَةِ القوميَّة، الَّتي باتت مُؤخراً تناصرُ تنظيم الدَّولة الإسلامية، ولهذا فقد بات السَفَرُ هَاجسهُ.

قال جمال بعدما أشعل لفافةَ تبغ:

- يبدو أنَّ مُغادرتي لتَكمَاندو قد باتت وشيكةً، فالسلطات لم يعد يؤتمنُ جانبها، وبقائي هنا باتَ فيهِ تهديداً جَديَّاً لحَياتي.

تناول علي جرعة ماء من كأس موضوع أمامه، ثمَّ قال:

- أعتقد أنَّ تلك الاستدعاءات الأمنيَّة هي مجرَّد عمل روتينيٍّ ذكي تتبعَهُ السُلطات في تَكمَاندو بهدفِ فرض حالة من البلبلةِ في صفوفِ المثقفين، ولو أنَّهم وجدوك متورطاً في العمل السياسي لما أبقوا عليك.

قالت سلمى:

- كثيراً ما حاولت إقناع جمال بذلك، ولكن دون جدوى.

- كَلَّا، ليس ذلك مجرَّد إجراء روتينيٍّ، فالرَّب وحده يُمكنهُ التَّكهُن بما تُضمرهُ سُلطات تَكمَاندو، الَّتي باتت في ذروةِ هياجها وطغيانها، ولم يَعد ثمَّةَ مجال سِوى الهَرب بعيداً، فذلك أنجع الحُلول، وأكثرهَا صَواباً.

- وأنا الَّتي ارتَبطتُ بكَ، هل فَكَّرتَ بما سَيَحُلُّ بي في غيابِك؟

- كلُّ شيء يمكن إيجاد الحلول المُناسبة له في وقتهِ، أمَّا الآن فقد أزفت لحظة الرَّحيل، والابتعاد عن تَكمَاندو، فلا يمكنني تَجاهل الواقع حتَّى يقع المحظور.

ارتشف علي رشفة من فنجان القهوة، وعقب يقول:

- للأسف، فالكثير من المحسوبين على المُعارضَةِ السِّياسيَّةِ قد رَحلوا عن تَكمَاندو، والنِّظام قد رحَّب دائماً بذلك، لا بل قدَّم لهم كلَّ التسهيلات المُمكنَةِ لكي يفعلوا ذلك، فبشكل مُمنهج تعمل سلطات تَكمَاندو على إفراغِ البَلد من المُثقفِين المُعارضِين لسياساتها، وهروبكَ الآن، كما كلّ الَّذين فروا من هذا الواقع الأليم، ألا يُعتبر نوعاً من الانتهازيَّة؟

- بربِّك لا ينقصني التَّقريع، فأنا لستُ مَسؤولاً عن كلِّ ما يَحصل في تَكمَاندُو، فالَّذي قد صرنا إليه لا يمكن لبشرٍ في هذا الكون توقعه، أو احتماله، فسنوات من العُنفِ ضدَّ شَعبُنا لم تتمكن من إقناعِ العالم بالتخلي عن سُلطاتِ تَكمَاندُو، فما الَّذي يُمكننا فِعله إذن؟

بدا جمال مُصراً على الرَّحيل، وقد فعل ذلك خلال بضعةِ أيَّام، إذ اختفى فجأةً، وانقطعت أخباره عن الرِّفاقِ في مَكاندو.

(13)

مَضتْ مدّة طويلة على رَحيلِ جمال الخاني عن مَكاندو، فَكانتْ سلمى الأسمر خلالها تزداد غَرقاً في أحزانِها، وعلي الرَّجوب لمْ يتمكنَّ مِنْ لِقائها، فقد انقطعتْ عن سيرانِ الياسمين منذ رحيل جمال.

وذات يوم كانَ علي مُتوجهاً، إثر يوم عمل شاق، إلى مكتبه الواقع في وسطِ مَكاندو، وحينما وصل، عند السَّاعة الثَّالثة مِنْ أصيل ذلك اليوم، إلى مكتبه تمدَّدَ على الكَنبةِ يستعيدُ ذكرياتهِ مع سلمى، بُغية التَّخلص مِنْ شَبحِها الَّذي ظلَّ يُطاردهُ، ولكنَّه لم يتمكن من ذلك، فقد كانت سلمى بكلِّ المعايير أُنثى عَصيَّةً على النسيان، وأخذته غفوة، وهو على حالته تلك ، فلم يلبث أن شعر بيد تربت على كتفه وحينما نظر حوله وجد سلمى الأسمر وعيناها دامعتان وهيئتها مزرية، فحاول سؤالها عما يجرى لها، فأشارت اليه أن يتبعها بصمت، وسارت أمامه عبر نفق طويل مظلم دون أن تنطق بكلمة، وحينما بلغا نهاية النفق نظر اليها مذهولا وهي تتلاشى على شكل غيمة، فحاول جاهداً الصراخ، ولكن صوته كان قد بح تماماً، فاستيقظ مذعوراً حينما كان صوت المؤذِّن يؤذن لصلاةِ المَغربِ، فألفى نفسهُ مُتلهفاً للاتصال بسلمى، فضرب أرقام الهاتف مُتصلاً بمنزلها، فأجابته

بصوتها الرَّخيم وَضِحكَتِهَا الآسرة، فقرَّرَ هذه المرَّة ألَّا يُضيِّع فرصته، فدعاها إلى العَشاء في مطعمِ البيادر، ولكنَّها بادرت هي فوجَّهت دَعوَتها إليه لأنْ يزورها في منزلِها في صبيحةِ اليوم التَّالي، فوعدها بذلك، ومضى فرحاً على غيرِ ما اعتاده في هذا اليوم من مزاجٍ كئيب.

وفي صباح اليوم التَّالي، وعلى الموعدِ المحدَّدِ، كان علي الرَّجوب أمام بابِ شقتها فقرعهُ بهدوءٍ ثم انتظر قليلاً، وحينما سمعَ حركةً خلف الباب، كاد قلبه أن ينخلعَ من مكانه.

فتحت سلمى الباب، وبابتسامتها المعهودة، قالت:

- وأخيراً أتيت أيُّها الوَقور؟

ثمَّ قادته إلى اليمين حيث غرفة الاستقبال، فكانت قد هيأت هنالك طاولة عامرة بمنتجات الطبيعة الَّتي تعشقها، فالتين المُجففِ والزبيب والموز والبُرتقال وركوة القهوة، وقطع الشكولاتة، كلُّ ذلك كان قد وُضعَ وفق ترتيب سَاحرٍ وأنيق.

كان منزل سلمى متواضعاً، فهو مؤلفٌ من غرفةٍ للنومِ وأُخرى للاستقبال ومطبخ كان يستخدم بذات الوقت كغرفة للطعامِ، ولكنَّها بذوقها الرَّهيف قد وضعت لمساتها الفنيَّة في كلِّ ركنٍ من أركان منزلِها، فهنالك

حيث المكتبة يتواجد في رفوفِها السُفلى مجموعة من الكتبِ النَّادرةِ ذات الأغلفة الأنيقة، في حين خَصَّصَت الرُّفوف العُليا للعديدِ من التُّحفِ الفنيَّةِ، وعلى ظَهْرِ تلكَ المكتبة تَوَضعت مجموعة من السلالِ المشغولة يدويَّاً، والأيقونات النَّادرةِ، وكانت اللَّوحات الفنيَّة تُزين جدران غرفة الاستقبال، وقد لاحظ أنَّ تلكَ اللوحات قد ثبتتها سلمى إلى الجدران دون إطاراتٍ تحدُّها، ما يشي بمدى تمرّدها على المحدوديَّة، وضيق الأفق، وشدما كان ذلكَ يتفق مع طبيعتها الأنثويَّة الفريدة في تَمرُّدها.

وقد بدت سلمى قويَّةً متماسكة، ومذهلة بشكل أثار دهشته، وإذ أجلسته إلى الأريكةِ على يسارِها، فقد تثنى له ولأوَّل مرَّة أن يسدِّد النظرَ إلى عينيها الزمرديتين ونظرتها الحالمة الحنون، ولكنَّه وقد لاحظ أنَّ في تكلفها السعادة لم تتمكن من مداراة غلالةٍ رقيقةٍ من الأسى بدت في ابتسامتها فسألها قائلاً:

- أودُّ الاطمئنان عنكِ سلمى، فقد انقطعت عن سيران الياسمين منذ مدة طويلة، فانشغل بالي عليك، فما هي آخر أخبارك؟

- إثرَ مُغادرتي بيلافور لجأتُ إلى شقتي المتواضعة، التي ابتاعها والدي قبيل أن نفقدهُ بزمنٍ قليل، ولا زلت

أعيش على البساطةِ كما ترى، فالأحداث الجِسام الَّتي مرَّت بي قد جعلتني على يقين تام أنْ لا عزَّ يدوم.

وبعد أن دعته الى تناول قهوته تابعت تقول:

- ثمَّ أتت هجرة جمال الخاني، ممَّا ألقى بي إلى هوةِ الفَراغِ من جديد، بعدما اعتدتهُ طويلاً سنداً لي إثر اغتيال والدي، ووفاة والدتي، وتَفرُّقِ شمل الأسرةِ، وبالرُّغمِ من ذلكَ فلا زلتُ ألتمسُ لهُ الأعذار لأنَّني أُدرك أنَّ ما ألمّ به من ألمٍ إثر مَصرع والديه في ذلكَ الحَدث الجلل قد ألقاه إلى حالةٍ من الاضطرابِ والبلبلةِ، وقد كنتُ أتحمل معهُ كلَّ تبعات ذلك لأنَّني أحببته بصدقٍ، وتعلقتُ بهِ بشدةٍ، عاقدةً آمالي كلُّها عليه بأنْ نُمضي معاً عُمراً سعيداً، ولكنَّ للحياةِ تصاريفها، وفي أغلبِ الأحيان نعجزُ عن إدراكِ ما قد تحملهُ لنا الأيَّام.

اعتدل علي في جلسته، وتناول كوب الماء، وبعد أن رشف منه رشفة قال:

- هل وصلتك أخبار جمال الخاني؟ فقد عَلمتُ مؤخراً أنَّه قد التحقَ بتنظيم الدَّولة الإسلامية، وذلك لو ثَبُتَ لتبين أنَّ حكاية تَذرعهُ بالهجرةِ ما كانت سوى تسترٍ على أمرٍ كهذا.

أجابت سلمى بشيءٍ من الحذر:

- هكذا يقولون، أمَّا أنا فلا أزال بعيدة عن تصديق مثل هذه الشَّائعات، كما أنَّني إلى الآن لم أجد سبيلاً للتواصل معه لأتأكد من حقيقة ما صار إليهِ أمره، ولا زلت ألتمسُ لهُ الأعذار، فربما كان لديهِ ظرفٌ يمنعهُ من التَّواصلِ معي حتَّى الآن.

تناول علي قطعة من التين المجفف، وقال:

- ولكنْ قد يكون لتلكَ الشَّائعات ما يبررها، فقد كان جمال يُناصرُ بثباتٍ التنظيمات الإسلاميَّة، وحقّ تلك التنظيماتِ في مقاتلةِ سُلطات تَكمَاندو.

قالت سلمى في محاولةٍ لتوضيح موقفها:

- ولكنَّه حينما غَادرني كان يبتغي الهِجرةَ إلى دولةٍ أوربيَّةٍ، وقد وعدني أنْ أُسافرَ إليه بُعيدَ وصوله، واستقراره هناك، غير أنَّهُ بسببِ تلك الشَّائعات عن التحاقهِ بتنظيم الدَّولة الإسلامية، الَّتي ترافقت مع انقطاعه عن التَّواصلِ معي كلَّ هذه المدَّة الطويلة، فقد باتت علاقتنا الآن تمرُّ في طورِ اختبارٍ مَرير.

- قد يكون لي رأي آخر، وأتمنى ألاَّ يثير غَضبُكِ، فربَما كلُّ حكاية مُغادرته لتَكمَاندو لم تكنْ سوى مُطيَّة للهروبِ من كلِّ ما كان يربطهُ بهذهِ الأرض، حتَّى أنتِ.

أجابت سلمى وقد بدت علامات القلق على محياها:

- كَلَّا، كَلَّا، فأنا لم أزل واثقة بعهودِ جمالٍ وبعودتهِ، ولو بعد حين، لأنَّ حبَّنا الَّذي دام طويلاً لا يمكنَ أنْ ينتهي بهذهِ البساطة.

وفي محاولة لأقناعها بخطأ موقفها قال علي:

- أظنَّكِ تُجافِينَ الحقيقة ومنطق الأشياء، فبالرُّغم من أنَّ كلَّ المؤشرات تنمُّ عن أنَّه قد تخلَّى عنكِ، فما زلت أنتِ محتفظة بعهودهِ، وبأملِ عَودتهِ.

استرسلت سلمى طويلاً تشرح لعلي كيف أنَّ ذكرياتها مع جمال عزيزة عليها، ولا تفارقها طوال الوقت.

ولتغيير مجرى الحديث بادرتهُ قائلةً:

- وأنت ما أخبارك أيُّها الوَقور؟

فأجابها علي مازحاً:

- لازلت أُقاومُ غُرورك، وأنتظر.

ضحكت سلمى، وأردفت تقول:

- أيُّها الشَّقيّ: كم يؤلمني أنَّك على مثابرتِكَ، وعنادكَ تجعلني في حالةٍ من الارتباكِ فلا أجدُ مِنهَا مخرجاً دون أنْ يكون ذلك مُجافياً للمنطقِ بشكلٍ كُلّي.

- لا عليكِ فقد اعتدتُ على الصَّبر.

قالت سلمى، وهي تنتقي كلماتها بحذرٍ:

- بكلِّ الأحوال سَنرى إن كنتَ ستفوز بما ترمي إليه، ولولا أنَّ جمال كان يتحمل كلَّ اندفاعاتي المجنونة بحبٍّ عارمٍ، بالرغم من كلِّ تحفظاته، لما بقيت معهُ، ولا أبقيتُ على عهودهِ حتَّى هذه اللَّحظة.

- على أيِّ حال فقد بات كلُّ شيءٍ الآن يوحي بأنَّه قد آن لك أن تري الواقع بِموضوعيَّة، فكلُّ المعلومات المؤكدةِ باتت تشير إلى التحاقِ جمال بتنظيمِ الدَّولةِ الإسلاميَّة.

ردَّت سلمى بأسىً:

- أمرٌ كهذا بتُّ أفكر فيه مليَّاً، ولكنَّني لا زلت أحاول جاهدةً أن أتجاهلَ كلَّ ذلك وأتناساه، فليس سَهلاً على امرأةٍ مثلي أنْ تُسلِّم بأنَّ أحلامها كلَّها قد أوشكت أنْ تذهبَ أدراج الرِّياح.

استأذن علي بالانصرافِ، إذ كان عليه أن يَمضي إلى عملهِ فودَّعها بعدما أخذ عليها عهداً أن تعود من جديد إلى سيران الياسمين، ومضى في سبيله.

(14)

ظلَّت صورة سلمى الأسمر تُهدهدُ خيال علي الرَّجوب خلال اللَّيالي التَّالية للقائهِ بِها، وقد أصبح، وعلى غير إرادة منه، يحنُّ إليها، ويشتهيها، وحتى يتخلص من هذهِ الدَّوامةِ، فقد كان عليه أن يجدِّد نمطَ حياتهِ، بالابتعاد قليلاً عن مَكاندو، سِيَّما وأنَّ صديقه أحمد علوش كان قد وجَّه إليه الكثير من الدَّعواتِ لزيارتهِ في مزرعتهِ بقريةِ الصَّبار، فَقرَّر المغادرة إلى هنالكَ، وأحاطَ صديقه أحمد علوش عِلماً بذلك.

كان الرَّبيع قد أزِفَ، والأزهار تُغني عِطرَها، وشمس آذار تبعثُ الدفء في حُضنِ كونٍ طروب، والطبيعة تبدو في أوجِ حُسنها، وتأنُّقها، حينما حزم علي الرَّجوب أمتعتهُ مُبَكِّراً، ومضى إلى قريةِ الصَّبار الَّتي بلغها في تمامِ السَّابعةِ والنصف صباحاً، وإذ وجد لديه الوقت كافياً فقد عرَّجَ على شوارعِ القَرية مُقتفياً أثر تلك الأماكن الَّتي احتضنت طُفولتهِ، ومن مسافةٍ غير بعيدةٍ لاحت لهُ مدرسة الصبَّار شَامخةً على ذلك المُرتفعِ من الأرضِ الَّذي لا يبعد كثيراً عن ساحةِ القريَة، فراح يتذكَّر زملاء الدِّراسة، وحبَّه العاثر لزميلتِهِ أمل، كما تذكَّر الموَّجه يوسف سليمان الَّذي لولا تعاطفه النَّبيل، مع حالتهِ البائسة حينها، لما كان قد استمرَّ في دراستهِ،

وبينما هو يجتاز السَّاحة راح يتذكَّر لُعبةَ العَظم الضَّائع، الَّتي طالما شارك فيها أقرانه بهجة اللَّعب في ضوءِ القَمرِ، ومن هنالك دلف إلى شارعٍ فرعيٍّ مُلاصق لتلك السَّاحة من جهة الشَّرق يفضي في نهايته إلى منزلِ أهلهِ، فوجدَ والدته سُمَيَّة قد استيقظت باكراً، وكأنَّها كانت في انتظارهِ، فأخذها بين أحضانه وأمضى معَها وقتاً مُمتعاً تناولا خلاله مشروب المَتةِ الصَّباحيَّة، حتَّى إذا أدركهُ الوَّقتُ استأذنها بالانصرافِ، ثمَّ مضى في حالِ سبيله إلى حيث مزرعة صديقه **أحمد علوش**، الممتدة على مساحةٍ تُقارب ثلاث دونمات مزروعة بشتى صنوف الأشجار المُثمرة، ويتوسطها منزل ريفيٍّ من طابقٍ واحد مُكوَّنٌ من غرفتين وصالة للطعامِ مع شُرفةٍ واسعة مُستديرة الشَّكلِ تطلُّ على تلكَ السُّهولِ الفسيحة الخضراء.

استقبلهُ صديقهُ أحمد علوش، وزوجته نهاد القاضي، بالتَّرحاب، وجلسوا معاً على تلكَ الشُّرفةِ، ووسط هذا الجمال كانت صورة سلمى الأسمر الَّتي أبت أن تفارقَ خيال علي تَغمرُ روحهُ بفيضٍ من الصُّورِ المُذهلة.

بيد أنَّه ما لبثَ أن عَلت الضَوضَاء عند سور المزرعة، وعلى خطواتٍ منهم كانت تتهادى في مشيتِها سيدة حسناء، تعتمرُ قبعةً من القشِ المُزركشِ، وترتدي قميصاً أبيضاً وتنورة سوداء، وسترة دون أكمام من الكتان

الأحمر، ونهداها مُترعَان، وعيناها الخضراوان تَشعَان ذكاءً، وشَعرها الأشقر يتهادى على جيدِها كعاصفةِ طربٍ مجنون إنَّها **ابتسام القاضي** الأخت الصُغرى **لنهاد القاضي**، وقد نمَّت هيئتهاُ عن أنَّها لم تتجاوز الثلاثين من عُمرها، وقد مشى خلفها زوجها نبيل **عوض** الَّذي بدا في الأربعينيات.

تقدَّمت ابتسام منهم، فألقت تحيتها بصوتٍ كتغريد عَندَل، ثم ولجَ إثرها زوجها نبيل عوض، فجلسوا إلى طاولةٍ مُستديرة.

عَرَّفتْ نهاد بضيوفِها، وكذلكَ فَعلَ زوجها أحمد علوش الَّذي قال مُسترسلاً:

- تَكمَاندو بلد الجمال، والطبيعة السَّاحرة، وهي بلدٌ مكتظٌّ بالخيراتِ، ومن المُؤسف ألَّا نكون في مقدمةِ أُمم الأرض في كافةِ النواحي الاقتصاديَّة والثقافيَّة والاجتماعيَّة، فلم يكن ينقصنا شيء لنكون كما اليابان.

ردَّ نبيل عوض، الذي كان قد استرخى في مقعده الوثير، موضحاً:

- ولكنَّ اليابانيين منذ انتهاء الحرب العالميَّة الثَّانيَّة كان محظوراً عليهم، في اتفاقيَّة الاستسلام، بناء جيش وطني، فكانت تلك فرصتهم، وهكذا لم ينفقْ اليابانيون ثرواتهم

في التَّسلحِ، وبناء الجيش، بل استثمروها في بناءِ الإنسان، فكانت هزيمتهم في الحربِ الكونيَّةِ الثَّانيَّة أحد أهمَّ أسباب نهضتهم، وتقدمهم، بينما نحن في تَكمَاندو لم يزل الجيش والتَّسليح يستنزفان مواردنا بشكلٍ شبه كامل.

قال أحمد علوش بعدما أخذ رشقة من كأس المتة:

- ليس الجيش والتَّسلح وحدهما ما يستنفذان مواردنا، إنَّما يضافُ إلى ذلك الفَساد المُنفلت من عقالهِ، كما أنَّ النهجَ القوميّ المُضللِ لحزبِ تَكمَاندو قد أثَّرَ سَلبا على كافةِ مناحي حياتنا، فبدلا من أنْ ننصرفَ إلى بناءِ اقتصادٍ وطنيٍّ متين، ونبني إنساناً متفوقاً كما الإنسان الياباني، فقد صارت القَضيَّة القَوميَّة مجرد ذريعةً لتنامي الإنفاق على التَّسليحِ، وتنامي الفساد، والنتائج لم تزل صفراً مطلقا عبر أكثر من ستين عاماً، فلا حققت تَكمَاندو وحدةً قوميَّةً بشَّرَ بها الحزب، ولا تنميَّة تجعلها أكثر ثباتاً في وجهِ المُشكلات الَّتي تواجهها، ولا حريَّةً تغنيها عن التبعيَّةِ للأسواقِ العَالميَّة الرأسماليَّة.

قال نبيل، وكأنَّه يتابع ما توقفَ عنده أحمد علوش:

- أعتقد، والحالة كما تقول، إنَّ مِصرَ هي الَّتي ستكون درَّة الشَّرق ذلك لأنَّها قد وضعت القضيَّة القوميَّة في آخر اهتماماتها، وانطلقت تبني اقتصادها الوطنيّ، ومع أنَّها

ما تخلَّت عن جيشها، فهي تَنهضُ صناعيَّاً، وبالرُّغم من أنَّ واقعها لم يزل دون المَطلوب، فهي تتقدَّم بثباتٍ واقتصادها قد أوشك أن يكونَ في مرتبة متقدمة، بالرغم من كل العثرات التي تواجهها في مسألة التوزيع، والعدالة الاجتماعية.

ألقى أحمد علوش بيديه الى المائدة، ثمَّ قال:

- ولكنْ ما لم يتهيأ لمصر حكومة وطنيَّة بالمعنى الحقيقي للكلمة، فتأخذ على عاتقها تطوير الإنسان، وتقيم دولةُ مؤسسات يحكمها القانون، فيصير المواطن منتميَّاً للوطنِ أولاً، أمَّا الدِّين فيصبح مَسالةً شخصيَّة وحسب، فبغيرِ ذلك ستصير كلُّ تلك التنميَّة مُهددة بالنكوص عَنها لدى أوَّل اضطراب يثيرهُ الإسلاميون.

كان علي يتابع حوارهما، فقال مُعقباً:

- في هذا الشرق، ما لم يحصل إصلاح ديني حقيقي كما حصل في أوربا، فستظلُّ مشاكلنا كلّها عالقة دون حل، وتطغى على عقل الإنسان الشَّرقي الَّذي طالما لم يزل دون إدراك طبيعة العلاقة الحقيقيَّة بين الله والإنسان كما يجب، فلن يتمكَّن شرقنا من تجاوزِ تَخلفَهُ المُقيم وصولاً إلى الأخذِ بأسبابِ العلوم والحضارة والتَّحديث الَّذي بات منذ زمنٍ بعيد مَهمَّةً ذات أولويَّة يجدر البدء بها.

سأل أحمد علوش مُستفسراً:

- وما طبيعة العلاقة الَّتي تشير إليها بين الله والإنسان؟

تناول علي رشفة من كأس المتة أمامه، ثمَّ قال:

- دعني أوضح تلك العلاقة كما أفهمها: إنَّ كلمةَ أيل بالآراميَّة تعني القويّ، أو البَطل، وهي الَّتي اشتُقَت منها مفردة الله، بعد أن أصبحت في تحويرٍ لاحق مرادفة لبطلِ الأبطال، وهكذا فمفهوم الإله هو مفهوم ذو منشأ أرضيٍّ بالأساس، فالإيمان بخالقٍ مُفترض هو نزوعٌ الضعف الإنسانيّ للارتباط بقوة كونيَّة ذات قدرة غير محدودة، وتلك حاجة ضروريَّة لتدعيم بنائنا الرُّوحي، طالما أنَّنا لم نصل بعد إلى درجةٍ مُثلى من السيطرةِ على الطبيعةِ، خصوصاً وأنَّ العلوم الوضعية لم تزل دون القدرة على فهم الكثير من الظواهر الطبيعيَّة، فوجود القدرة الماورائية المفترضة يجيب عن تلك الأسئلة الَّتي لم يزلْ يكتنفها الغُموض، ويعتريها عدم الإدراك والفهم، بأنَّها سر من أسرار خالق عظيم لهذا الكون.

تناول علي كأس المتة من أمامه فارتشف رشفة منه ثمَّ تابع يقول:

- ولكن هذاً الإله المُفترض، كما يمكننا أن نتخيل، لا يهمهُ مُطلقاً مصير الإنسان، ولا طرائق حياته التي لا يتدخل فيها، بخلاف ما يرتئيه الفقه الديني المتوارث، ومن العبثِ ألَّا يكون الأمر كذلك، فكيف لو كُنتَ إلهاً مفترضاً ستُحاسب بشرياً إذا كنتَ أنتَ الَّذي توجِّه سلوكه وتهديه سُبله؟ فحينما يَغرقُ اثنان في مياهِ المُحيط أحدهما مُتديّنٌ، ولكنَّه لا يُجيدُ السِّباحة، والآخر مُلحدٌ، ولكنَّه يجيد السِّباحة، فالَّذي سينجو هو المُلحدُ الَّذي يُجيدُ السِّباحة، فإرادة الله مُحايدة تماماً، ولا تُحابي الأغبياء، حتَّى لو كانوا مؤمنين، ومن هنا فقد صارت أوربا، الَّتي يَصمُها كَهنَةُ فقهنا التراثي المتوارث بالكُفرِ والإلحادِ، في مقدمةِ أمم الأرضِ لأخذها بأسبابِ العلمِ والتطور، بينما نحن، الَّذين ندَّعي تعصباً أعمى للإله المفترض، لم نزل نرسف في تخلفٍ وجهل مقيم منذ قرون.

عقب أحمد علوش:

- ما تقوله يبدو لي أمراً منطقيا تماماً.

فثابر علي مكملاً حديثه:

- فحتَّى نتقدم علينا الأخذ بأسباب العلوم، وحتى نحقق ذلك يتوجب علينا إعادة النظر بالدين الرسمي وتطويره بحيث يستوعب مستجدات العلوم والفلسفة الإنسانيَّة والحداثة.

هنا تدخلت ابتسام القاضي فقالت:

- مع ذلك فلا يمكننا إنكار الدَّور الأساسيِّ للربِّ في رعايتنا، وانتشالنا من ذنوبنا وخطايانا، ولولا ذلك لتفشَّت في النَّاس أمراضاً نفسيَّة شتى جرَّاء اليأس، ولأكل القويِّ حقوقَ الضُعفاء دون رادعٍ من ضمير، فالله هو الضَميرُ الكونيِّ الَّذي ما تخلى أبداً عن مخلوقاتهِ، ولولا ذلك فلا شيء يُمكنهُ الحدَّ من نزعاتنا، وغلوِّ غرائزنا.

رد علي:

- لنتفق إذن على أنَّ المشكلة الَّتي تواجهنا، ليسَ الإله بحدِّ ذاته، الَّذي أُجزمُ أنَّه يَمنحنا المَغفرةَ في كلِّ حين، فهو بالتأكيد لا يتربص بنا الدَّوائر للإيقاع بنا، فمثلُ هذا الصِّغارُ ليسَ بالعَملِ الَّذي يليقُ بالخالقِ العَظيم، ولكنَّ مُشكلتنا الأساسيَّة مع كَهنةِ الأديانِ الَّذين فرغواَ الدِّين من جوهرهِ الطبيعيِّ النَّقيِّ، وشرعوا، منذ أيام الدولة الأمويَّة والعباسيَّة، في وضعِ القيودَ تلو القيودِ

على حُرّيتنا كإضافاتٍ بشريَّةٍ إلى النَصِّ المقدَّسِ، تُعَبِّرُ عن مصالحِهم الأنانيَّةِ الضَّيِّقة، وتستجيب لمطامحِهم بجعلنا مجرَّد آلات يَسهلُ التَّحكم بِها وترويضُها، لصالح الحاكم المستبد.

وللانطلاقِ في اكتشاف هذا الكون، والتفاعل مع أممِ الأرض كافة دون عُقدٍ متوارثة، أو ضغائن مُفترضَة، يتوجب على هذا الشرق القيام بإصلاح ديني يهدف إلى تخليص الدين المتوارث من علة الفساد والتحريف المتراكم الذي لحق به.

قطعت نهاد القاضي استرسالهم في الحوار، ودعتهم إلى الولوج إلى الصَّالة لتناول طعام الفطور، وفي هذه الأثناء تناهى إليهم وقع خطوات في الفناءِ، فكان القادمُ هو قريب لنهاد القاضي من قريةِ الطويلةِ المجاورةِ، وما هي إلا لحظات حتَّى دخل عليهم **محمد البني** بهيئته الفريدة، فهو رجل طويل القامةِ أسمر البشرةِ نحيلٌ، وفي حوالي الأربعين من عمره، وتخاله حين تراه وكأنَّه كتلة من العظامِ تدَّثرَّت هندامه المُكون من قميصٍ أبيض وبنطالٍ أسود، وسُترَة بُنِّيَّة.

ألقى محمد البني التَّحيَّةَ عليهم بابتسامته المُهذَّبة الوَجلة، وصافحهم جميعاً قبل أن يجلسَ إلى جوارِ قريبتهِ نهاد القاضي.

وعلى المائدة تابعت ابتسام القاضي حديثها من حيث انتهى علي الرَّجوب قائلة:

- ربما أنا، والكثيرين من أمثالي لم نصل بعد إلى مثلِ هذا الطموح الَّذي تشي به، ولكنَّني على أيَّةِ حال لا أختلف معك كثيراً َ فيما يخصُّ المُجتمَع المُنفتح على الإنسانيَّةِ والعلوم، ولكنَّني لم أزلْ أعتقد بأنَّ حاجتنا إلى الرَّبِ، وإلى المَغفرةِ لم تزل في أوجها.
- ولكنَّ المُشكلة الأساس هي في تحديد ماهية الإله المفترض الَّذي نرتجي منه المَددِ، والمَغفرة، فهو لم يزل في منظور كَهنَةِ الأديان ليس أكثر من مجرَّد طاغيَّةٍ يتربصُّ بمخلوقاتهِ الدوائر، وهوَّسَه الوحيد إيقاع العِقاب دونَ رحمةٍ، ولا شفقة، على مخلوقاتِه الفانية، وكأنَّه شيخ ساديٌّ من مشايخِ الكُتابِ، بينما المفهوم الجميل للإله الحقيقيّ يقتضي أن يكون هالةً من النُّور والرَّحمة والمغفرة والحُبّ، ولن يتسلل الحقدُّ يوماً إلى جمال عالمه اللامتناهي، فالله ما كان ليُبدعَ كوننا جميلاً إلَّا ليكون جَنَّته الَّتي يبتغي من خلالها أن يجدنا فيها بما ينسجم وطبيعته ورحمته الواسعة ومحبَّته، ولكنْ بعد أن نختبر هذه الحياة بكلِّ أبعادها بحيث تكتمل معارفنا، وتسمو بالتَّجربة

والفهم العميق لطبيعةِ الأشياء فنرتقي بذلك إلى سويَّة من الوعي يشعرها الإله ذاته أنَّها تليق بمخلوقاته الَّتي أبدع، ولولا ذلك لكانت الحياة كلُّها مجرَّد عبثٍ مطلق، ولعلَّنا نجد فيما رأي أحد المُستَنيرين حكمةً ثمينةً حين قال: "الجنَّة في رأيي ورأي العُقلاء، والمُدركين، إن هي إلَّا حالة النَّفسِ البالغة كَمال المَعرفة الحقيقيَّة"، فالجنَّة إذن هي المعرفة الحقيقيَّة، بينما الجَهلُ هو الجَحيمُ المُطْبَق، وقد آن لنا مُغادرة ذلك الجَحيم، وكلّ من لا زالوا يحاولون إطالة مُكوثَنا فيه.

هنا تدخل محمد البني، الذي كان يتابع حديثهم بانشداه، فقال معقباً:

- وأنا أعتقد ذلك، فأنا من خلال تجاربي كعضو مؤتمر شعبة أجد أنَّ علينا أن نستفيد دائماً من أخطاءِنا.

من الجلِّي أنَّ **محمد البني**، وهو عضو في حزب تكماندو، كما بدا من تعقيبه، قد عبَّر عن محدوديَّةٍ طالما اتَّسم بها الكثيرون من رفاقهِ، **ومحمد البني** هو الابن الأكبر لأحمد البني المُتعهد الثَّري في منطقةِ **الطويلة** المجاورة لمَكاندو، وقد كان لوالده خمسة أشقاء آخرين غيره اثنتين منهم من البنات، وقد كانت والدته ذات التربيَّة المحافظة

شديدة القسوة في تنشئته، وفي ذات الوقت كان والدهُ مُسرفاً في تدليلهِ، مما جعلَ منه تلك الشَّخصيَّة المتقلبة الَّتي لا تستقرُّ على حال، ولهذا فقد فشلَ في تحقيق حلم والده بأن يصيرَ طبيباً، فقد تمكَّن بالكاد من تجاوزِ المرحلة الإعداديَّة في مدرسةِ الطويلة، وإثرَ ذلك، بزمنٍ طويل، استطاع أن يجد لهُ وظيفةً بسيطةً في كليَّة الاقتصاد بجامعة بيلافور.

وتسنى لهُ أثناء ذلك أن يتعرَّف إلى الصبيَّةِ سلمى الأسمر، إذ طالما كلَّفه والدها أحمد الأسمر بإحضار الثِّمار الطَّازجة من قريته الطويلة إلى منزلهِ في بيلافور، وذات مرَّةٍ حينما كانت سلمى وحيدةً في منزلِ والدها وصل محمد البني حاملاً سلال الثِّمار الطَّازجة، فاستقبلته سلمى كعادتها مع كلِّ من تصادفه بالترحَابِ، وبابتسامتها المَعهُودةِ، وانطلاقتِها الرَّحبة، فَخرَّ مَغشياً عليه، مبهوراً بِحسنها، وما لبث أن قدَّم نفسه إليها عارضاً خدماته، فضحكت سلمى واستجابت لطلبهِ فكلفته بإحضار عسل القبَّار الَّذي تحبَّه في المرَّةِ القادمة، فلم يلبث محمد البني أن لبَّى طلبَها في اليومِ التَّالي، فأتاها بثلاثِ عبواتٍ من عسلِ القبَّار، واتَّصل بها، وقد بلغَ أوج غبطته، ليخبرها بأنَّه قد أحضر لها ما طلبته منه، وإذ بلغ به الهُيام حداً متعاظماً، فقد كان لا يتردد في أن يكون مجرَّد خادم لها، وقد شَجعَهُ على تعاظمِ شغفه بها أنَّها

ظلَّت، وقد أدركت بغريزتها الأنثويَّة مدى توَّلهه بها، على علاقةٍ وثيقةٍ بهِ، وتستخدمه كخادمٍ مطيع ووفيٍّ يؤمِّن لها ما ترغبه من خدمات، فكانت تُغازله من حينٍ لآخر، وتشعره بأنوثتها الطَّاغيَّة دون أن تُغامر لأبعد من ذلكَ، بينما كان محمد البني يغرق أكثر فأكثر في عشقِها، والذَّوبانِ فيها كما يذوب السُّكر في الماءِ فيضمحلَّ.

استمرَّت جلسة الرِّفاق إلى أن أزفت الشَّمس على المَغِيْبِ، وهي تُرسلُ أشعتها الدَّافئة عبر برودة المساء، وكلُّ شيء في هذه الطَّبيعة المُلونة يشي بالكثير من الفتنةِ المراوغة، وكان في هذه الأثناء محمد البني قد حزم أمتعته، واعتزم الرَّحيل إلى قريتهِ الطويلة، فودَّعته قريبته نهاد القاضي عند الباب الخَّارجي للمزرعةِ، ومن ثمَّ مضت تعدُّ القهوة لضيوفها.

ابتسم علي، وهو يقول معقباً على ذهابِ محمد البني:

- هذا النَّمط البسيط الَّذي يُجسِّده محمد البني هو المثال الحيِّ على أنَّ شعبنا من أبسطِ شعوبِ الأرض قاطبةً، وإنِّي لأشعر بالتعاطفِ مع تلك البساطة الَّتي هي تجسيد حيِّ لروحِ شعبنا في تَكمَاندو، وكلُّ ما علينا عَمله هو أنْ نكونَ على التصاقٍ بروحِ هذا الشَّعب لإنهاضه، إن أردنا أن نتقدَّم بثبات نحو تحرير مجتمعاتنا من كابوس تخلفنا المتوارث.

ردَّ أحمد علوش قائلاً:

- ولكنَّنا نعيش في عالمٍ كلُّه صراعات، وعلى مستوياتٍ أيديولوجيّةٍ مُتباينة، ولا بدَّ لنا والحالة كذلك أن يكون لنا موقفنا من ذلكَ كلِّه فالبساطةُ وحدها، في عَصرِنا الحاليِّ، لا تكفي للتقدم.

ردّ علي الذي كان منهمكاً في الاستعداد للرحيل:

- ولكنْ ما ذنبُ الإنسان البسيط حتَّى نُقحِمَهُ في ميادينِ الصِّراعات الإيديولوجيَّة الغريبة عنه، والَّتي لا يمكنه فهمها، كما لا يمكنه تقبُّلها، أو حتى استيعابها، علينا أن نوقظ الإنسان لدينا لكي يدرك أن ما نعانيه الآن ليس قدراً محتوماً، إنما هو من صنع فاعلين، ويمكننا قلبه وتغييره.

لم يجد أحمد علوش من ردٍّ سوى أنَّهُ قال:

- لننتظر النهايات إذن.

كان وقت المُغادرةِ قد أزِفَ، فودَّعهم علي الرَّجوب منصرفاً إلى مَكاندو.

(15)

استيقظَ علي الرَّجوب مُبكِّراً في الخامسةِ من صبيحةِ يوم الجُمعةِ، فأخذَ حَمَّامَاً دافئاً، وتناول قهوته الصَّباحيَّةِ، وبعدما ارتدى على ظهرهِ حقيبةَ السَّيران، غادرَ إلى سَاحةِ مَكاندو، فوَجدَ سلمى الأسمر قد وصلت تماماً في السَّادسةِ صباحاً على توقيتِ سيران الياسمين، مُرتديةً قميصاً قطنياً أبيضاً على بنطالٍ من الجينزِ الأزرقِ، ومُعتَمرة قُبَّعة من القشِ، متأهبَّةً لسيران اليوم، فبادرها قائلاً:

- صَباحُكِ ورود أيَّتُها الفَاتنة، كم يسرني أنَّكِ عدت إلى مسيرنا، وأنَّك تتقيدين بدقةِ المَواعيد.
- نعم، فقد تعودتُ التزام الدِّقة في مواعيدي من أيَّامِ والدي رحمه الله، فقد كان يقدِّسُ النِّظام في الحياة والعَمل، ولشدِّ ما تتشابهان أنتَ وهو في ذلك، وابتسمت، فَشعَّ مَبسَمُهَا عن جمالٍ وفتنة.

قال علي مُغازلاً رقَّة سلمى:

- سلمى، أنتِ تتمتعين بفتنة نادرة، فتنة تكاد تغويني أيَّتها الحَسناء.

ردَّت سلمى بابتهاجٍ عارم:

- لِمَ لا؟ فقد أغويتُ الكثيرين قبلكَ، ولا اعتقدكَ استثناءً.

خلال ذلك كان بقيَّة الرفاق قد وصلوا تباعاً إلى ساحة تكماندو، وميعادُ انطلاق سيرانهم قد حلَّ، فمضوا معاً ضمن مجموعة مؤلفة من حوالي أربعين رجلٍ وامرأة، وقد كانت ابتسام القاضي وزَوجُها نبيل عَوض ضيوفاً جُدداً في سيرانِ اليوم، كما انضمَّ إليهم عدنان عواد وابنه الشَّاب أحمد عواد، فكانت السَّاعة تشير إلى السَّابعةِ والرُّبعِ صباحاً حينما وصلوا إلى مَزرعةِ عدنان عواد المقصودة في سيرانهم لهذا اليوم، فتحلَّقوا حول عددٍ من الطاولاتِ المُتلاصقةِ، وشرعوا في تناولِ مشروب المَتةِ الصَّباحيَّة، فافتتح عدنان عواد حديث جلستهم تلك، باعتباره المُضيف والأكبر سناً بين رفاقِ السَّيران، فقال:

- من دواعي سروري أنَّني أتشارك مَعكم هذه الجلسة المُمتعة، والَّتي أتمنى أنْ تُثمر عن علاقاتٍ آمل لها أن تكونَ في حجمِ المسؤوليات المُلقاة على عاتقِنا كمثقفين، وسياسيين لنا تجربتنا الَّتي لا يُستهان بها في مُعاركةِ الواقع المرير الذي لم نزل نتخبط فيه.

كان واضحاً أنَّ عدنان عواد قد أراد بذلك أنْ يُعبِّرَ عن مدى أهميّته كَمثقفٍ له تجربته السياسيَّة.

فبدا علي الرجوب ممتعضا من هذا الاستعراض، فتوجه الى عدنان بقوله:

- يبدو أنَّنا سنكون أبعد ما يكون عن رفاهيةِ السِّياسة، فنظرة متأنيَّة إلى مُجتمعنا تُبيّن أنَّ السَّاحة الَّتي تُناور وتَنشطُ خلالها الأحزاب اليساريَّة العلمانيَّة لا تتجاوز ما نسبته 20% من سُكان تَكمَاندو، بينما الحزب الحاكم والإخوان المسلمين ينشطون ضمن نسبة أل 80% المتبقية الَّتي هي مَلعبهم الواسع.

قال عدنان عواد وابتسامة ساخرة تعلو محياه:

- وما الحل برأيك؟
- التنوير هو السَّبيل الوحيد الممكن الَّذي يُمهِّدُ الدُّروبَ لنشرِ الوعي على نطاق أوسع بما يقلب هذه المعادلة المُجحفة بحقِّ شعبنا لصالحِ هذا الشَّعب، فَسلطات تكماندو لديها حساسيَّة شديدة من تشكيلِ الأحزاب السِّياسيَّة، خصوصاً اليساريَّة والعلمانيَّة منها، ولهذا السبب بالذات فقد فشلت الأحزاب التقليديَّة، التي تم احتوائها من قبل السلطة، في تحقيق أي اختراق يذكر لصالح شعبنا.

هنا تَدَخَّلَ نبيل عوض، الذي كان يتابع الحوار، ليوَّجه دفَّة الحديث وجهةً مُختلفةً فقال:

- في الأحداث الَّتي لم نزل نعيش فصولها تباعاً كان لدينا في البدءِ طَرفان مُتصارعان، فكان اليساريون الثَّوريون من الشَّجاعة بمكان إذ بدأوا ذلك الحراك الثَّوريّ، وخلال الأشهر السِّتة الأولى كان حراكهم سلمياً، وتوخينا نجاحهم، ولكنَّ النِّظام قد تمكَّن، بحنكتهِ ودهائهِ، من جرِّهم إلى ساحتهِ عَبرَ تسليح مناصريهم من الإسلاميين، وحيث مكمن قوة النِّظام في العسكر، والبوليس، فمنذ تلك اللَّحظة بدأت الأحداث تتخذ منحىً مُختلفاً تماماً عمَّا كنَّا نتوقعه إذ تَحوَّلت المُعارضَة ،الَّتي كانت سلميَّة في بداياتها، إلى مُعارضةٍ مُسلحة، وفي غالبيتها دينيَّة طائفيَّة مُتشددة، وبين رَحى الطرفين المتعاركين يتمُّ الآن طحن شعبنا بكَّافة فئاته المُتوسطةِ والفقيرة.

كان علي يتابع باهتمام ما عرضه نبيل، فقال موضحاً وجهة نظره:

- نعم، وهذا إن دلَّ على شيء فإنَّما يدلُّ على فشلٍ ذريعٍ للمُعارضةِ اليساريَّةِ الثَّوريَّة في التخطيطِ لحدثٍ بمثل هذا الحجم الكارثيّ، فلو كان هؤلاء

مُدركين لخطورة المُجابهة الَّتي صبوا إليها مع النِّظام الحاكم في تَكمَاندو، ومقدرين جيداً لحجم رصيدهم الفعليّ بين الجماهير، وحجم وقوة خصمِهم، لكان يُفترضُ بهم توَّخي الحذر في اختيارِ توقيت تَحركهم، ذلك لأنَّ اللَّحظة الثَّوريَّة لم تكن قد أزفت بعد، خصوصاً وأنَّ النِّظامَ كان ولا يزال يمتلك ساحةً واسعةً للمُناورةِ، إذ تمكَّن بسهولة من تجنيدِ وتسليحِ مِئات الآلاف من أبناءِ شعبنا لحمايتهِ، والدفاعِ عن بقائهِ، واستمرارهِ، في حين عجز أولئك اليساريون الثَّوريون عن تحقيق أي إضراب عن العملِ في قطاعِ الدَّولةِ، أو القطاع الخاص، ولو ليومٍ واحد.

ثمَّ تابع علي عرض وجهة نظره بعد أن تناول رشفة من كأس المتة:

- ولهذه الأسباب فقد اضطُرَّ اليساريّين الثَّوريّين إلى الاعتماد على رصيد الإسلاميّين في الشَّارعِ، ودورِ العبادةِ، مما أتاحَ للإخوان المُسلمين فرصتهم الذَّهبيَّة لمُصادرةِ الحَّدث الثَّوري برمَّتهِ، باعتبارهم الأكثر انتشاراً وشعبيَّة، وهكذا فقد تمَّ سحب البساط من تحتِ أقدام التيَّار اليساريّ الثَّوريّ، وكنتيجةٍ حتميَّةٍ لذلك فقد سَهُلت عملية

جرّ هؤلاء اليساريّين الثَّوريّين إلى تلك تَحالفاتِ، كانوا بغنىً عنها، مع الإسلاميّين عن طريق استقطاب تلك الرُّموز اليساريَّة الثَّوريَّة من قبلِ أنظمةِ الخليج النَّفطيةِ للمُتاجرَةِ بهِم.

التفت علي إلى عدنان عواد الذي بدا ممتعضاً، ثم تابع مداخلته قائلاً:

- وإزاء تَقهقُر الإخوان المسلمين أمام سُلطَات تكماندو شرعَ المُسلحون الإسلاميون المُمولون بسخاءٍ من دولِ الخليج النَّفطية، وبتسهيلاتٍ لا مثيل لها مَنحتهَا لهم تركيا، بالتدفق بالمئاتِ عبر الحدود لنُصرةِ الحراك الإسلاميّ في تَكمَاندو، حيث انبثقت من وقتها الشِّعارات الطائفيَّة المُتطرّفة الَّتي بدَّدت النسيج الاجتماعيّ، وقد عَزلَت تلكَ الشِّعارات والمُمارساتِ الطائفيَّةِ التَّيارات الإسلاميَّة بشكلٍ كبير عن قاعدتهِم الشَّعبيَّة، في حين تزايد رصيد نظام تَكماندو عند تلكَ الشَّريحة بنفس النسب، فاضطُرَّ الإسلاميون لأن يُدخِلوا تحت عَبَاءَتِهِم كلَّ شُذاذ الأفاق في العالمِ، تحت ستارٍ مكثَّفٍ من التَّحريضِ الدِّينيّ والمذهبيّ، لموازنة قوى النِّظام وحلفائه، ومن حينها فقد بات الاقتتال واضحاً جليَّاً بين طائفتي

السُّنَة والشِّيعَة على أرضِ تَكمَاندو، ممَّا أعادَنا من جديد عشرات القرون إلى الوراء.
تناول علي كأس الماء التي كانت أمامه، وبعد أن ارتشف منها قليلاً، تابع يقول:

- وقد تمَّ لاحقاً إنهاك كافةِ الفصائلِ الإسلاميّة الَّتي وُصفَت بالمعتدلةِ، بما فيها العناصر الَّتي انشقَّت عن جيشِ السُلطة، تحت ضرباتِ النِّظامِ وحلفائهِ ممَّا مَهَّدَ السُّبلَ للفصائلِ الَّتي رفعت شعار تنظيم الدَّولة الإسلاميَّة للتوسعِ على حساب بقية الفصائل المُعارضَةِ، فكان ما كان من التضييق على حرّيات النَّاس وإذلالهم، وما يرافقُ ذلك من تكفيرٍ وذبحٍ على الهويَّة وسبيٍّ وسلبٍ ونهبٍ وتصفياتٍ عرقيَّة رهيبة، وإقامة أسواق للعبيدِ في القرنِ الواحد والعشرين، وتلك النتائج المُخزيَّة حتَّمتها تلك المُقدمات الخاطئة المُتهورة، وغير المدروسةِ.

هنا تنطع عدنان عواد، الذي بدا غاضباً، للرَّدِ قائلاً:

- وبرأيكَ ما الَّذي كان بإمكان اليساريّين الثَّوريّين في المعارضةِ فعله، وهم ما وجدوا ملاذاً وسنداً لهم سوى دول الخليج الَّتي تتجنَّى عليها بمثلِ هذه

البساطة، بينما كانت من بين كلِّ دول العالم المؤيِّدة بثبات لحقِّ شعبنا بإسقاط النِّظام القائم.

- لعلَّ من أبسط بديهيات المنطق أنَّ شعباً يرسف تحت نير الاستبداد، كما شُعوب الخليج، لنْ يتمكَّنَ من إنقاذ شعبٍ آخر من استبدادٍ مُماثلٍ، فما بالك إذا كانتْ أنظمةُ الخليج ذاتها هي الأكثر استبداداً ورجعيَّةً في التَّاريخ الحديث، وهذا المُنزلق الخطير قد كان من أبرزِ عوامل إسقاط حركة الشَّعبِ المُطالِبَةَ بالتغيير.
- علي: أنت تُصرُّ دائماً على التَمسكِ بالنِّظام القائم بالرُّغمِ من أنَّه الأكثر تخلفاً، واستبداداً على صعيد العالم.
- مهلاً يا عزيزي عدنان فأنا متفق معك على سوءِ وفساد النِّظام القائم، ولكن في أبسط الأحوال النِّظام القائم لا يمكن مُقارنته بنمطِ الدَّولة الإسلاميَّة القائمة على التكفير، وقطع الرقاب، والَّتي تدعمها بسخاءٍ أموالُ النَّفط الخليجيَّة، تلك الأنظمة الَّتي لم تزل فيها حقوق الإنسان صفراً بالمُطلق، والحال كذلك فقد بتنا بين نارين وعلينا اختيار أقلَّهما ضَرراً لأنَّه ليس ثمَّة بديل ثالث مُهيأ ليكون أملنا في إنقاذِ الوطن مما غرق فيه من محنةٍ لا سابقة لها في تاريخنا الحديث.

قال عدنان عواد مُغتاظاً:

- على كلِّ حال يبدو أنَّ الحوار معك لن يسفرَ عن أيَّة نتيجة مفيدة، لأنك بآرائك هذه إنَّما تعزز الاستبداد الذي تدعي محاربته.

تغاضى علي عن الإهانة التي وجهها اليه عدنان عواد، فهو يدرك أنَّ التَّشنج والتطرف هما المَصير المَحتوم لكلِّ الحوارات الَّتي تدور بين المُثقفين على امتدادِ سَاحةِ تَكمَاندو خلال هذه الأزمة الكارثيَّة، فقد كانت تلك الحوارات مُشْبَعَةً بالنظراتِ الذاتيَّة، الَّتي تنمُّ عن المحدوديَّة، وضيقِ الأفق.

كان الوقت قد أزف على العَاشرةِ صَباحاً، والشَّمس تُرسل دفئها، وضوئها يغشى وريقات الأشجار الغَضَّةِ فتنبثق الصُّور المُراوغة الخَلَّابة عبرَ الفراغات بين تلك الوريقات الخضراء، والفراشاتِ المُلوَّنةِ كانت تُدَّوم بحركاتٍ تجعل الوقت تتخلَّله لوحات طبيعيَّة فاتنة، حينما حلَّ موعد إفطارهم، فتحلَّقوا حول المائدة، وأخذوا من جديدٍ يتجاذبون الأحاديث المُسليَّة، وفي هذه الأثناء كانتْ ابتسام القاضي قد وضعت لَمَسَاتِها الأخيرة على بعضِ الأطباقِ الشَّهيَّةِ، تُساعدها في ذلك سلمى الأسمر وكذلك زوجها نبيل عوض، وكانت أشجار الزَّيتون الخضراء تمتدُّ في كلِّ الاتجاهاتِ، حيث المَزارع المُتجاورة، ممَّا

يوحي بالأملِ والحياةِ، والشَّمس بدت أكثر دفئاً فراحت تبعثُ فيهم القوَّة والنَّشاط، وكانت سلمى الَّتي تحمل طبقاً من الفتوش قد وضعته على المائدة، ثم أخذت مكانها إلى جوارِ علي الرَّجوب، بينما ابتسام القاضي جلست بالقربِ من زوجها نبيل عوض، وإلى جوارِ سلمى على اليسار كان يجلس عدنان عواد وابنه أحمد، وبقية الرِّفاق.

خلال ذلك وصلت سيارة أجرة تَقلّ أحدهم لينضمَّ إلى رفاقِ سيران الياسمين، وما لبثَ أن تبينَ أنَّ القادمَ هو **محمد البني** الَّذي وصلَ متأخراً من قريتهِ الطويلة، فاستأجرَ سيارة للالتحاقِ بالرِّفاق، وقد أضفى وجوده طابعاً مرحاً على جلسةِ الشُّرب الَّتي بدأت لتوّها.

قال محمد البني الَّذي بدا في غايةِ الفرحِ حينما اطمأنَّ إلى أنَّ سلمى الأسمر بين الرِّفاق:

- تقصَّيتُ أمركم، وعَلِمْتُ من خلال مَصادري أنَّكم هنا، فلم أتوانى عن الحضور، خصوصا وأنَّ بصحبتكم سلمى الأسمر الَّتي أكنُّ لها كلَّ الاحترام والتقدير، لها ولأسرتها النبيلة المُحترمَة.

كان محمد البني يعتقد أنَّه أقل شأناً بكثير من مَقامِ سلمى الأسمر وعائلتها، ولهذا فقد كان يُثابر التَحدثِ بلهجتهِ المفخَّمةِ حينما يجري ذكرهم على لِسانهِ.

وجدت قريبته ابتسام القاضي أنَّ لديها ما تقوله، فتوَّجهت إلى محمد البني مازحةً:

- طبعاً سلمى فقط، والباقين لا أهمية لهم، يبدو أنَّ ثمَّة ما هو خيار، وما هو فقوس برأيك.

ثم توجَّهت بابتسامتها الآسرة إلى سلمى غامزةً من طرْفها:

- أغبطكِ سلمى، فقد كلَّف محمد نفسه مشقَّات السَّفرِ كي يكون قريباً منكِ.

عقَّبت سلمى بابتسامة ساخرة، وقالت:

- لا شأن لكم بيني وبين محمد البني، فهو صديقي الأنتيم منذ زمنٍ طويل، ثمَّ ضحكت ضحكتها المُجلجلة.

وما أن شعر محمد البني بابتهاجها حتَّى بات في أقصى درجاتِ السعادةِ.

ظلَّ محمد البني طوال تلك الجلسة شديد الاهتمام بسلمى، دائم المراقبة لكلِّ حركةٍ من حركاتِها، فما أن تطلبَ شيئاً إلَّا ويلبي فوراً ما تطلبه، ولا يكفَّ عن القولِ بأنَّها الأجمل والأكمل، وأنَّها تستطيع أن تطلب منهُ أي شيء فهو خادمها المُطيع.

وخلال ذلك ثابرَ الرّفاق جلسة الشَّراب حتَّى حان موعد الغداء حيث كانوا قد أعدُّوا لذلك السيران أكلات مُنَوَّعة من اللَّحم المشويِّ والمُقَبِلات، وكثير من السلطاتِ الشَّهيَّة.

بدا الجو خريفياً رائعاً، والشَّمس تبعث دفئها بهدوء حالم، وكل شيء ينبئ أنَّ يومهم سيكون الأجمل منذ أمدٍ بعيد، وخلال ذلك كان علي الرَّجوب يحاول الانفراد بسلمى، فتذرع بحجة إحضار بعض من ثمار العنب من المزرعةِ المُجاورةِ، ودعاها إلى مرافقته، فاستجابت له سلمى، وذهبا معاً، وحينما ابتعدا عن الرِّفاق قال لها:

- أرجو ألا يزعجك سؤالي: ما مدى علاقتكِ بمحمد البني؟

ضَحكَتْ سلمى، وقالت:

- محمد البني ليس سوى إنسان بسيط، وأنا اعتمد عليه لتأمين كل ما أحتاجه، وأطلبه منه.
- ولكنَّه يتحدث، ويتصرَّف معكِ كعاشقٍ حقيقيٍّ من زمنِ الفروسيَّة.

ضَحكَتْ سلمى، وقالت:

- إنَّه ليس أكثر من واهمٍ، وأنا قد اعتدت أن أتجاوز عن بعضٍ من سلوكياتهِ كي أحافظ عليه، لأنَّني أعتمد عليهُ لتأمين معظم احتياجاتي.

ثم ابتسمت ابتسامة ذات مغزىً، وقالت:

- ولكن قلْ لي أيُّها الوقور: ما الَّذي يُشعلُ نار الغيرةِ في قلبكَ؟

وضعته سلمى في موقفٍ محرج لا يُحسد عليه، ولكنَّه إذ تمالك نفسه قال بلهجةٍ تنمُّ عن الأسى:

- اعذري تدخلي في شؤونكِ، وقد كان ذلك حقاً بدافع الغيرةِ، لمَ لا، وأنتِ تُدركين عِظم مكانتكِ عندي.

شعرت سلمى بشيءٍ من تأنيبِ الضَّمير، فقالت معتذرةً:

- أسفه إذا كنت قد سببتُ لكَ بعض الإزعاج، ولكنَّني بطبيعتي أميل إلى الوضوحِ، والصراحة، وأنا معجبةً بنبلكَ، ولكن ثمَّة الكثير ممَّا يجب التفكير فيه قبيل الإقدام على مغامرةِ حُبٍّ محتملةٍ، أعتقد أنَّك مهيأ لها بحكم طبيعتكِ الحالمةِ، فأنتَ رجلٌ جديٌّ، ولا يمكن العبث معكَ.

- ولماذا تحاولين وضع المزيد من الحواجزِ بيني وبينك، فهذا يجعلني أتألم كثيراً من كلِّ علاقةٍ عابرةٍ تطالك، حتَّى لو كان بطلها محمد البني.

ردَّت سلمى، وإمارات الأسى تغزو مُحياهَا:

- أتظن أنَّني لم أخمن حقيقة عواطفك نحوي؟ فلتعلم أنَّ كل ما تحاول التصريح به قد بت مدركة له منذ زمن، ولكنَّني لا أبغي التصرف بأنانيَّة في سبيل عدم زجَّك، من جديد، في خضمِّ الألم؟
- ولكن يجب أن تقتنعي بحقِّي الطبيعي في أن أمضي خلف ما تهواهُ روحي، وينشغلَ به عقلي وقلبي، فأنا لا زلت أبحثُ فيكِ عن تلكَ المرأةِ الَّتي أفتقدها وأحنُّ إليها منذ زمنٍ بعيد، وقد عثرتُ عليكِ، ولن يهونَ عليَّ أن أفقدكِ مجدداً، وأنا على أتمِّ الاستعداد لتحمل كلَّ ألمٍ محتمل في سبيلِ أن تكوني سعيدة.

ردَّت سلمى بحياء:

- وأنا أيضاً لا يمكنني أن أفقدكَ بعدما عثرت فيكَ على كلِّ ما جعل لحياتي معنىً مُختلفاً، طالما حلمتُ به، وتمنيتهُ طوال عُمري.

وهكذا فقد بات كلُّ شيءٍ يشي بالحبِّ، حتَّى الطبيعة بدت تتراقص في طَربٍ، وعلي الَّذي صارت سلمى في مرمى أحلامهِ، إذ اعترفت لتوها بتعلقها به عبر كلماتٍ لا لبسَ فيها، ولا مراوغة، فمضيا معا فرحين الى المزرعة المجاورة حيث أحضرا سلة من العنب الطازج، ثمَّ تأبط ذراعها، وسارا في طريقهما عائدين إلى جلسةِ الرِّفاق

كان الرِّفاق بانتظارهم، وقد بدا محمد البني مُمتعضاً، ونار الغيرة تعصفُ بكيانه.

بدأ عدنان عواد الحديث قائلاً:

- في لمَّة كهذهِ يسرني أنْ أرفع نخب علي الرَّجوب وسلمى الأسمر.

وابتسم ابتسامة ذات مغزىً، وهو يُنَقِّلُ ناظريه بين علي وبين سلمى الَّتي بدت في غايةِ الغِبطةِ.

تجاهل علي وسلمى نظراتهِ تلك، ورفعوا الأنخاب، فمضت جلستهم هادئةً بعض الشيء، ولكنَّ ذلك لم يستمرَّ طويلاً، فعدنان عواد حاولَ، بعد الظهيرةِ، أن يُعيدَ الرِّفاق إلى حلبةِ السِّياسةِ، فافتتح حواراً بغمزة من قناة علي الرجوب:

- البعض منا لم يزل يتنكر إلى هويَّةِ هذا الشَّعب، ويعارضُ أبسطَ حقوقهِ في الحريَّةِ والديمقراطيَّةِ، دفاعاً عن أنظمةٍ قمعيَّةٍ أكل الدَّهرُ عليها وشرب.

فسانده نبيل عوض بقوله:

- نعم فنحن لا يمكن أن نتنكر للحقيقة المَوضوعيَّة بأنَّ غالبيَّة شعبنا هم من الطائفةِ المُتدينةِ باعتدال، وهم بالذَّاتِ دون سِواهم من وقعَ بحقهم مُعظم هذا الغبن الجائر، فشرّدوا من منازلِهم، وتمَّ التنكيل بهم، وهُجِّروا إلى شتى أصقاع الأرض خلال هذه السَّنوات حيث يستمر الصِّراع.

أكمل عدنان ما توقف عنده نبيل قائلاً:

- ومع ذلك لم نزل نجد، فيمن لا يكفون عن القولِ باحترامِهم لحُريَّة الرأي والمُعتقد، من ينكر على هذهِ الطائفة ذات الأغلبيَّة أبسط حقوقها، ويؤيدون أعمالَ الإبادةِ الجماعيَّة الَّتي ارتُكبَتْ بحقها تحت ذرائع وحجج واهيَّة، وللأسف فمعظم هؤلاء من المقربين إلى اليَسارِ الرَّسميّ (في إشارة ضمنيَّة إلى أحزاب الجبهة الوطنيَّة)، فإذا كُنت يساريَّاً حَقاً فعليكَ مُساندة مَطلب الشَّعب بالانعتاقِ،

والحرّيَّةِ، وإلَّا فلتُعلن عن ذاتك أنَّكَ تخون القيم والمبادئ الَّتي تدَّعي إيمانك بها، وحينها فقط يُمكننا أنْ نُدركَ مَراميك، ونتجاهل أمركَ على نحوٍ أكثر سُهولة، أمَّا سِياسة التَّخفي خلفَ يافطاتِ التَعقُّلِ والحكمةِ والتنوير فلم تعد تجدي نفعاً، إذ أنَّ العوراتَ كلُّها باتت مَكشوفة، وشعبنا لنْ يرحمَ المُتخاذلين حينما نَكونُ أمامَ استحقاقاتِ مرحلةٍ مَصيريَّة آتية لا ريبَ فيها.

كان علي الرَّجوب طوال هذا الخطاب يُنصت باهتمام، ويحاول أنْ يتجنب الاستفزاز، ولكنَّ عدنان عواد وقد بدا بمثل تلكَ القسوة في كيلهِ الاتهامات الحاقدة لم يعد يسع علي الأ أنْ يردَّ عليه، فقال:

- ليس ما سأقوله دفاعاً عن أي حزب سياسي، فأنا أعتبرها كلها أحزاب فاشلة، ولكن أنتم المُتحدرين من أحزابٍ يساريَّةٍ ثوريَّةٍ أسألكم: متى كانت المُجتمعَاتُ يمكنها أن تذهب إلى الحرّيَّة، والديمقراطيَّةِ تحت شعاراتٍ دينيَّةٍ مَذهبيَّةٍ؟ أنتم الَّذين طالما اضطُهدتُم، ومُورِسَ عليكم التَضليل، وأشنع التُّهم من قبلِ اؤلائك الَّذين، يمثلون سياسياً، حسب اعتقادكم، الطَّائفة ذات الأغلبيَّة، تُرى هل في مبادئكم ما يروج لثورةٍ إسلاميَّة،

وهل هذا سيوصلنا إلى الحرّيَّة الَّتي نروم ونرتجي، أم إلى اقتتالٍ طائفيٍّ لا يعلم سوى الله عواقبه الوخيمة؟ واقعنا لا يمكن استبداله بمثل هؤلاء من دعاةِ الثَّورة الإسلاميَّة، فهل لثورة أن تقوم في ظلِّ شعاراتٍ كمثل (المَسيحيون إلى بيروت، والشِّيعة إلى التابوت)؟

هل هذه ثورة؟، أم صحوة مذمومة للطائفيَّة ستوصلنا إلى مُحيطاتٍ من الدَّمِ لو تمكنَّت من تحقيق مآربها.

وكلنا بات يدرك أنَّ شعارَاتِ المُتملقين من حزبِ تَكمَاندو لم تكنْ سوى مرادف أرعن لتلك الَّتي رفعها الإسلاميون، فشعاراتٍ كمثل (القائد أو نحرق البلد) هي أيضاً شعارات نازيَّةٍ تمثل زُمرة كِبار الفاسدين المُستفيدين من الوضعِ القائم، أنَّ مَصلحةَ المُواطن المُتواجد في طائفةِ الأغلبيَّة، أو الأقليَّة ليست هنا، وليست هناك.

هنا وجد عدنان ثغرة، ليغير اتِّجاه الحوار فقال:

- الإسلام والمسلمين حقيقةً واقعةً، ولا يمكنك تجاهلها في مجتمعنا إذا توخيتَ الموضوعيَّة.
- مهلاً يا عزيزي عدنان، فإن دحضَّ مزاعم الإسلاميِّن المُتطرفين لا يعني التَّهجم على إسلام

النَبيّ مُحَمَّد، فكل منا يدرك أنَّ ما يحرك المُتطرفين الإسلاميين ليس رسالة الإسلام بِحدِّ ذاتها، وإنَّما وهمُ الخِلَّافة الإسلاميَّة، وأبسط المثقفين يُدركُ الفَرقَ الشَّاسعَ بين دعوة النَبيّ مُحَمَّد النقيَّة، وتلك الأنماط المُشوَّهَة للدَّولة الاستبداديَّة الَّتي ابتدعها الأمويون والعباسيون والعثمانيون.

فمن المَعلوم أنَّ الطور النَّقيّ لإسلام النَبيّ مُحَمَّد قد انتهى إثرَ وفاته بقليل، حيث اندلعت حروب الرِّدة الَّتي كانَ جذرُها اقتصادياً، كما كلِّ الحُروب عَبرَ التَّاريخ، وإنْ توارت خَلفَ سِتارٍ عقائديٍّ، فمن منا لم يقرأ العبارة المشهورة من خطاب الخليفة الأوَّل للنبيّ آنذاك إذ قال: " والله لو منعوني عقالاً أعطوه لرسولِ الله لحاربتهم عليه"، وما تلا ذلك، في أزمنةٍ مختلفة، من حروبٍ داخليَّة ليس أفظعها موقعة الجَّملِ الَّتي راح ضحيتها أكثر من عشرين ألفاً من المُسلمين خلال يومين من الصِراع الدَّمويّ العَنيف، ومروراً بموقعةِ صفين، حيث كانت كلُّها معارك رَمَت إلى حَسم الخلاف الدَّموي على خِلافة النبيّ مُحَمَّد، وقد تثنى خلال تلك الحروب التَّمهيد لوصولِ أوَّل حاكمٍ من أصولٍ أرستقراطية

تجاريَّة إلى السلطةِ، ومن يومِها باتَ دين النبيّ مُحَمَّد مُجرَّد يافطةً وحسب، استند إليها كلُّ الخُلفاء المَزعومين ليحكموا النَّاس ،الَّذين هُم أمَّة مُحَمَّدٍ، بالحديدِ والنار.

عقَّب عدنان عواد بقوله:

- المهم بالنسبة لكم أن تظلُّوا ظِلاً لسلطةِ الحزب الحاكم في تَكمَاندو.
- كلَّا، فأنا أدرك أنَّ من يحكمُنا الآن هو ذاته الَّذي حكمَنا منذ أكثر من ألفِ عام، فالاستبداد واحد، ولا يمكن التستر عليه سواء جاء تحت عباءة حزب تَكمَاندو، أم تحت عباءةِ الدَّولة الإسلاميَّة، ولكنَّ الفارق الجوهري الَّذي ربما لا تلاحظونه، أنتم طلَّاب الثَّأر من السلطةِ الحاليَّة، هو في التَّنوير الَّذي سوف يُغلقُ كلَّ أبوابه المُتطرفون الإسلاميون بِحجةِ عبادة التراث، والسَّلف الصَّالح، فيما لو تسلموا قيادة البلاد.

- وستظلُّون أنتم وتنويركم دون أيّ معنى ما لم تعملوا على استبدال الاستبداد القائم الَّذي هو العائق الأساس لأيّ تنوير ُممكن.

تناول علي خصلة من العنب ثم قال:

- الاستبداد كان دائماً وأبداً ضدَّ التنوير، والظلاميون هم أيضاً ضدَّ التنوير، ولكن بشكل أكثر منهجيَّة ووحشيَّة، والحال كذلك، فقد صرنا في وضعٍ مُرغمين فيه على اختيارِ أهون الشَّرَيْن، ثمَّ علينا جميعاً فيما بعد أن نثابرَ العمل لإيجاد السُّبل الأكثر واقعيَّة لتغييرِ الوضع القائم.

كانت الشَّمس تميل إلى الغروب، وبدأت تسري في الهواء نسمات منعشة باردة حينما قرَّروا إنهاء سيران الياسمين لهذا اليوم، فتوجهوا معاً إلى مَكاندو، وقد كان أمامهم ست كيلومترات يجب قطعها سيراً على الأقدام.

قالت سلمى، حينما انفردت بعلي الرَّجوب:

- ألم تلاحظ أنَّ عدنان عواد قد بدا كمحاربٍ، وليس كمحاور.
- عدنان هو بالأساس شاب طيب ونزيه، ولكنَّه كمحاورٍ أمرهُ مختلفٌ، فهو يعاني كغيرهِ من اليساريّين الثَّوريّين من عقدةِ النِّظام القائم، فقد تعرَّض هؤلاء في سنواتِ شبابهم للاعتقال التعسفيّ، ولهذا فهم يبحثون عن أيَّةِ قوة يُمكنَها الثَّأر لهم من النظامِ، ويعود الذَّنب في ذلك على النِّظام القائم ذاته الَّذي فَشل حتَّى الآن في إفساحِ المَجالِ لحياةٍ ديمقراطيَّةٍ حقيقيَّةٍ تُتيحُ لمُختلفِ الفصائلِ والتَّياراتِ الفكريَّة أنْ تحاورَ وتختلف

فيما بينها تحت سقف الوطن، ولهذا فقد بات هؤلاء المُتطرّفين من اليسار لا تهمهم الأسباب بل النتائج، فلو أطاحت القوى الظلاميَّة بالنِّظام القائم غداً، فسيرحبون بذلك دون أيِّ اكتراث بما سيحلَّ في اليوم التالي، بالرُّغم من أنَّ ذلكَ لو قد حصل فسيكون يوماً لتعليقِ مشانقهم بتهمةِ العلمانيَّة، أو الشيوعيَّة، أو الإلحاد.

- مع ذلك أجد أنَّ رأيه ربما يمتلك بعض الجوانب الصحيحة، فالفساد قد بلغ مبلغاً لم يعد الإصلاح الجزئيِّ معه مفيداً.
- نعم، ولكن علينا الآن ألَّا نسمح للظلاميين باكتساحِ السَّاحةِ، وإعادتنا ألف عام إلى الوراء، فالنظام القائم، رغم عيوبه وفساده، لم يزل البديل المُمكن في اللَّحظةِ الرَّاهنةِ، فليس لدينا في واقعنا الحاليِّ أيَّة قوة وطنيَّة متجذِّرة في شارعنا مؤهلة للحلولِ محلَّه.

ولا يمكننا الخروج من هذه الدَّوامَة عبر قفزةٍ في الهَواء، وإنَّما عبر نضالٍ طويلٍ، ومراكمة المكتسبات للنَّاس ريثما يختلَّ ميزان القِوى لصالحِ هذا الشَّعب، وعندها فقط يُصبح التغيير الثَّوري مُمكناً.

نظرت سلمى باندهاش إلى علي، وقالت:

- حقاً، وكم علينا أنْ ننتظر إذن؟
- السؤال الحقيقي هو: كيف يمكننا أنْ نثابر على تنوير وتعبئة هذا الشَّعب للقيامِ بثورة وطنيَّةٍ حقيقيَّةٍ ضدَّ الظُلم والفساد، فالظروف الموضوعيَّة متى نضجت، فلن تتأخرَ اللَّحظة الثَّورية لحظة واحدة، أمَّا النزعات الإراديَّة الفوضويَّة فلن تُجدي نفعاً، ولن يستفيد منها شعبنا في مجملِ الأحوال.

أرادت سلمى الخروج عن سياقِ الحديث فقالت:

- لندع السِّياسة جانباً، فما رأيكَ في سيرانِ اليوم؟
- كان يوماً حافلاً، وأهمَّ ما فيه أنَّنا قد أحرزنا شوطاً هائلاً إلى الأمام، فسيران الياسمين يتسع ويزداد عدد الرَّاغبين في مُرافقتنا من خلالهِ، وهذا أمرٌ مشجعٌ.

كانَ التعب بادياً على سلمى، فجلسا ينتظران وصول بقيَّة رفاق السيران، وأثناء ذلك قالت سلمى:

- تأمل الطبيعة يجعلني على درجةٍ عاليَّةٍ من المزاجِ الجميل، فأنا لا أعبأ بأيِّ شيءٍ أثناء وجودي في أجواء شاعريَّة كهذه.

- نعم الطبيعة جميلة، ولكنَّك أنتِ سلمى بحسنكِ وفتنتكِ من تضفين سحراً على الطبيعة.

اقتنصت سلمى تلك الفرصة السَّانحة لتطبع قبلةً سريعةً على خدِّ علي فضمَّها إليهِ، واختلس قبلة من شفتيها.

في هذه الأثناء كان الرِّفاق قد شارفوا على اللَّحاقِ بهم، وحينما وصلوا تابع علي وسلمى السَّير من خلال المجموعة.

كان سيران الياسمين قد انتهى بوصولِ الرِّفاق إلى السَّاحةِ الرئيسيةِ في مَكاندو، فتفرقوا بعد أنْ تواعد علي وسلمى على لقاءٍ قريب.

(16)

كانتْ الأنباءُ المؤكدة، الَّتي تصل من شمالِ البلاد إلى مَكاندو، تشير إلى التحاقِ جمال الخاني بتنظيم الدَّولة الإسلامية، وقد كانت أخبار جمال تدلف إلى العَّامةِ عبرَ صُورهِ الَّتي كان يبثُّها عبرَ وسائط التواصل الاجتماعيّ، وحيث أنَّ جمال يحمل إجازة في الحقوق بمرتبة الامتياز، فقد استخدمه تنظيم الدَّولة الإسلامية في عملٍ استشاري مُلحق بأحد أهمِّ أمراء تنظيم الدَّولة وهو **أبا حفصة العنزيّ**، فصار جمال بذلك تابعاً لأهمِّ دواوين الدَّولة الإسلاميَّة ألا وهو ديوان الأمن، وبات المُشرف الرَّسمي على عملياتِ التَّحقيق مع أسرى وسبايا التنظيم لدى الأمير لإعادة تأهيلهم بما ينسجمُ واستراتيجيات التنظيم، حيث كان يخضع كلُّ الَّذين يلتحقون بالتنظيمِ لدورتين إجباريتين، واحدة شرعيَّة، وأخرى عَسكريَّة للتدريب على القتالِ، وسُعاد الرَّاعي الَّتي صارت سبيَّة لدى الأمير أبا حفصة فقد كان قد خصَّ نفسه بها لتكون إحدى جواريه ومَحظيَّاته، ولكنَّها لانتمائها إلى مَكاندو فقد ظلَّت موضع ارتياب من الأمير، أمَّا جمال الخاني فكان بعيداً عن الشُّبهات والشُّكوك لكونه من مواليدِ بيلافور، وقد حظيَّ بمكانةٍ أثيرة لدى الأمير لما لَمَسَهُ منهُ من علوِّ الهمِّة وتوقد الذكاء، وذات يوم طلب جمال الخاني، بإيعاز من أبي حفصة، من أمِّ المُجاهدين، الَّتي

كانت تُشرفُ على مَهجعِ السَبايا، أن تأتيه بهنَّ إلى مكتبهِ، واحدة إثرَ أخرى، للتحقيق مَعهنَّ، وكانت عَمليات التَّحقيق تستغرقُ حوالي نصف ساعة مع كل واحدةٍ منهن، وحينما بلغ الدَّور سُعاد الرَّاعي ولجت بابَ مكتبهِ، والحزن مخيّم على مُحياها، وبعد أنْ دعاها للجلوس على كرسيٍّ موضوع مُقابل مكتبه طلب منها أنْ تُحدِّثه حِكايتها باختصار، فبدأت سُعاد وعيناها غارقتان بالدموعِ تروي قصتها، وكيف تَعرَّضت للسَّبيّ على يدِ مقاتلي الدَّولة الإسلاميَّة، وهي في طريقها إلى مَكاندو، فاستوقفها جمال، وسألها:

- وما علاقتكِ أنتِ بمَكاندو؟

انتابت سُعاد موجة من النَّشيجِ، فأمرَها جمال بإغلاقِ باب مكتبهِ، وحثَّهَا على مُتابعةِ الحديث، وقد تثنى له أنْ يخبرها أنَّ لهُ أصدقاء كُثر في مَكاندو.

فقالت سُعاد، وقد اطمأنت إليهِ قليلاً:

- أنا مُعَلِّمَةُ مدرسةٍ من مدينةِ مَكاندو، وقد كنت على وشكِ إعلان خطوبتي حينما اقتادني مقاتلو الدولة الإسلاميَّة سبيَّة.

- ومن هذا المَحظوظ الَّذي كان على وشك أنْ يُعلنَ خطوبتهِ عليكِ؟

- وهل تعطيني الأمان بألَّا يسيء إليهِ أحد إذا أنا صارحتك باسمه.

- لكِ الأمان فتحدَّثي.

- لقد كان بالنسبة لي كلَّ شيءٍ، حياتي وعمري، إنَّه علي الرَّجوب.

ذُهل جمال لما قالته سُعاد، وأمرها أنْ تكتم من أمرِها فلا تحدِّثَ أحداً بما سَيُفضي بهِ إليها، وقال:

- المهندس المعماريّ علي الرَّجوب لقد كان صديقيَّ الحميم، وتجمعني به صلة قُربى، فهو ابن خالتي، وقد كانَ من المُثقفين المَعدودين الَّذين تعرَّفتُ إليهم في مَكاندو، ولولا قناعاتهِ الرَّاسخةِ بوجوبِ تطبيق العلمانيَّة كنظامٍ للحُكم، لكانَ ما يزال بالنسبة لي أفضل صَديق.

وما أن نَطَّقَ جمال بذلك حتَّى انهارت سُعاد لهولِ المفاجأة الَّتي أبلغها بها.

فأمرها جمال بأن تتماسك، وأسرَّ إليها أنَّه سيعمل جاهداً على إعادتِها إلى مَكاندو حينما يتثنى لهُ تدبير ذلك.

شَعرتْ سُعاد بموجةٍ من السَّعادةِ تغمرها، فقد وجدت بعدما غَرقتْ في الظلَّام الدَّامس بصيص نور يُمكنها التعويل عليهِ لانتشالها من محنتِها، بعدما انهارت كلّ

آمالها، فارتمت على قدمي جمال تُقبلهما، وترجوه بمذلةٍ أن يهيئَ لهَا سبيلاً للخروجِ من هذهِ المحنة.

دفعها جمال عنهُ بلطفٍ، وقال:

- حافظي على كتمان السرِّ، وثقي بي، وتوكلي على الله، وبإمكانكِ الانصراف الآن.

غادرت سُعاد مكتب جمال الخاني، والدُّموع تملأ مقلتيها، ولكنَّها كانت دموع الأمل، بينما ثابر جمال مُتابعة مهامه، وصورة سُعاد وعلي الرَّجوب لا تفارقه.

ثمَّ مضت الأيَّام سراعاً، وجمال لم يزل يُفكر ويضع الخطط للخروج من المأزقِ الَّذي وضعَ نفسه فيه بوعده سُعاد بأن يعيدها إلى مَكاندو.

وفي أحد الأيَّام تمَّ تكليفهُ من قبل الأمير أبي حفصة بمهمَّة الاتصال بأحدِ فروع الدَّولة الإسلامية التَّابع للخليفةِ مباشرةً، وقد كان ذلك يقتضي منهُ السَّفر عَبرَ الباديَّة الشرقيَّة لتَكمَاندو مروراً بطريقٍ ترابيٍّ يحاذي مدينة مَكاندو، فاغتنم تلك الفُرصَة المواتيَّة لتنفيذِ خُطتهِ الَّتي ومضت في ذهنهِ فجأة، فطلب من أميرهِ أن ترافقه السَّبيَّة سُعاد الرَّاعي في هذه المهمَّةِ، فلبى الأمير طلبهُ، وقد عمل جمال بكلِّ تكتم وسريَّة على اختيار عناصره الَّتي سترافقه في ذلكَ المَسير، ثمَّ طلب سُعاد إلى مكتبهِ،

وأبلغها برحلتهِ الَّتي سترافقهُ خلالها، دون أن يُفصحَ لها عن وجهتهِ، أو عن خطتهِ، وفي اليوم المُحدَّد لبدءِ مهمَّته استقلَّ سيارة مُدججَة بالسِّلاح، وجعل سُعاد إلى جانبهِ، وقد كان جمال بحكمِ مهمَّته الأمنيَّة يَحمل ختماً أزرقاً لتنظيم الدَّولة الإسلاميَّة يُتيح له الكثير من الصَّلاحيَّات على عناصرِ الدَّولة الإسلاميَّة أينما وجدوا.

وأثناء تلك الرِّحلة عرَّجوا على استراحةٍ في واحةٍ قريبةٍ من مَكاندو، فأمرَ جمال مُقاتليه بالذَّهاب إلى قريةٍ مجاورةٍ، مواليَّة لتنظيم الدَّولة، للتزوّد ببعضِ المُؤنِ، وحالما تواروا عن الأنظار، وعلى غير انتظار من سُعاد، أمرها، وعلى دهشةٍ منها، بأن تتولى شَأنها بعدما زوَّدها بالنقودِ اللَّازمةِ لاستكمالِ رحلتها إلى مَكاندو، كما زوَّدها بمهمَّةٍ مَمهورةٍ بالختمِ الأزرق كي تستعين بها إذا صادفها أفراد من تنظيمِ الدَّولةِ الإسلامية.

فعانقته سُعاد مودِّعة، وقبَّلت جبينهُ، والدُّموع تملأ مُقلتيها، ثمَّ تابعت سيرها هائمةً على وجهِها في طريقِ عودتها إلى مَكاندو، والفرحة بخلاصها تغمرها بمزيدٍ من المَشاعرِ المُتناقضة.

بينما تابع جمال سيره باتجاهِ فرعِ الدَّولة الإسلاميَّة التَّابع للخليفةِ، وبعدما قضى مهمَّته خلال ثلاثة أيَّام عَاد أدراجه إلى مقرِّ عملهِ لدى الأمير حيث استقبله أبا حفصةَ

العنزيّ، وحينما سألهُ عن سُعاد لفقَّ جمال له قِصَّةً مُطولة عن أنَّ أحد رجال الخليفة المُهمِّين، وقد أعجبته سُعاد لبراعةِ حُسنِها، وفتنتها، فقد طَلبها منه لتكونَ هديَّته إلى الخليفة، فلم يتوانى عن تلبيةِ طلبهِ، فسُعاد ما كانت سوى مجرَّد سبيَّة لا قيمة لها.

شكك الأمير في رواية جمال، ولكنَّه لم يشأ أنْ يفتعلَ خلافاً مباشراً معه لأجل سبيَّة، ولكنَّ متاعب جمال قد بدأت منذ تلك اللَّحظة، فقد تمَّ نقلهُ من ديوانِ الأمنِ إلى ديوانِ الجُند، فأمضى هنالك سَنةً كاملةً يُشارك في غزواتِ التَّنظيم كمقاتلٍ في صفوفهِ، وخلال ذلك تَثنَّى له معاينة أحوال تنظيم الدَّولة الإسلاميَّة عن كثبٍ، ورأى بأمِّ العين دماءَ الرُّعبِ الغامقةِ، واختنقَ برائحةِ المُفخَخَاتِ والبَارود، ومشى على بقايا الأشلاءِ الآدميَّة، كما كان قد سئمَ دروس التَّوحيد وشروطه، ومسائل أخرى في التَّكفير، وقتال المُرتدين طوال الدَّورات الشَّرعيَّة، كما كان قد سئمَ الإعلانات الدَّعوية داخل المُدن الَّتي استولت عليها الدَّولة الإسلاميَّة، إعلانات لإقامة الصلاة، وأخرى موجَّهة للنساء تطالبهن بالحشمة، وارتداء النِّقاب، وثالثة تُنفر من التَّدخين، وتعدُّه من المُحرمات، كما سئمَ من النقاط الإعلاميَّة التحريضيَّة في العديد من مفارقِ الطُرقِ الَّتي كانت تَبثُّ إصدارات الدَّولة وغزواتها تِباعاً.

كما كان جمال قد شاهد الكثير من حالات الظُلم والجور الَّتي أدى بعضها ببعض أمراء الدَّولةِ الإسلاميَّةِ إلى السُجونِ، وبعضهم إلى التصفياتِ الجسَديَّةِ الوحشيَّةِ، كما كان يُعاين سلوكَ المُتملقين من رجالاتِ التنظيم، وحبكهم للمؤامرات من أجل غاياتٍ شخصيَّة وصوليَّة، فكان يتساءل:

هل يمكن أن تكون هذه دولة الإسلام العادلة فعلاً؟

وكان مجرَّد طرح مثل هذه الأسئلة باعثاً لقلقهِ العميق، وهو الَّذي تخلَّى عن أعزّ ما لديه من أجلِ الدَّولة الإسلاميَّة.

فبدأ ينهارُ في داخلهِ نموذجُ الدَّولة الإسلاميَّة العَادلة، وبات يعتقد أنَّ كلَّ المُضايقات الأمنيَّة الَّتي تعرضَّ لها في تَكمَاندو لا تساوي شيئاً أمام شَراسةِ، وظلم الجِهاز الأمنيّ للدَّولةِ الإسلاميَّة.

فاعتزم الهروب، ووطنَ العزم عليهِ، وشرعَ ومجموعة من المتذَّمرِين يُخططون لذلك، بينما كانت صورة سلمى الأسمر تلوح لهُ من بعيدٍ كشراع سفينة أوشكت على الغَرَق.

(17)

استيقظت سلمى الأسمر، على موعدها، في الثامنة صباحا، وحينما راحت تعد قهوتها الصباحية اتصل بها علي الرجوب، فدعته إلى منزلها ليتناول قهوته برفقتها، وحينما جلسا قالت سلمى:

- حصل ما كنت أتوجس حصوله، فقد تأكدت بما لا يترك مجالاً للشَّكِ أن جمال قد التحق بتنظيم الدَّولة الإسلاميَّة، وهذا ما كنت أخشاه، ولم يعد بإمكاني تجنبه، ولهذا فقد انتهت كل علاقة لي به.

- كنت أخمن ذلك، ولا أتمنى حصوله.

- لقد تصرف جمال تصرفاً انتحاريَّاً يائساً.

- دعيني أشرح لكِ وجهة نظري.
- تَفضَّل فكلِّي إصغاء لكَ.
- بعد ما علمته منك عن انفضاض عهدك مع جمال الخاني، فليس ثمَّة تبريرات تجعلني أبتعد عنكِ بعد اليوم، إن لم تكن تتعلق برفضك لي، وعندها سأبتعد، ولن تري وجهي ثانيَّة.

قالت سلمى والدَّمعة تتدحرج على خدها، فتداريها بيدها:

- أقدر لك صراحتك، ووضوحك معيٍ، وهذا الَّذي يشدُّني إليكَ، ولكن هل أنتَ مُستعد لمغامرةٍ كهذه مع امرأةٍ مُحطَّمةٍ مثلي، ومع ذلك تُثابر الطيران؟

اختطف علي قبلةً من شفتي سلمى، وتابع يقول:

- فلتدعينا نمضي معاً، ولننسى الماضي بكلِّ مآسيه وعذاباته، فالعمر يمضي، وأجد أنَّه من العبث أن نحاول تغيير أقدارنا، فأنا الآن أشعر، أكثر من أي وقت مضى، أنَّك كنت ولا تزالين قدري الذي لا مهرب منه.

بدت سلمى مُتسمرَّةً، وهي تنظر في عيني علي المُتقدتين حبَّاً، فتوهَّج خداها احمراراً، فباتت أكثر أنوثة وجمالاً وخفرا، فما كان من علي إلا أن عانقَها، وبقيا على ذلك الحال زمناً طويلاً، وهو في غاية السعادة، فكان الوقت يمضي سريعاً، وسلمى مُستسلمةً لتلك اللَّذةِ العَارمةِ الَّتي يبعثها في روحها هذا الحُبّ الجديد، ولكنْ وقد حان موعد خروجها إلى عملِها، فقد تخلصت من ذراعيهِ اللَّتين كانتا تُطوقانها، واستأذنته بالذَّهاب، فودَّعها علي بعد أن احتضنها بقوة إلى صدرهِ، وقبَّل عينيها، وجبينها، ثم مضى وحيداً في طريقهِ إلى مكتبهِ تُصاحبه ذكرى متوهَّجة تُزلزلهُ، وتهزُّ كيانه كلُّه، فقد بدا له أنَّ الكون كلَّه قد بات ينحدرُ صَوبَ غابةٍ من المُتعِ الغامضة.

وتمرُّ الأيَّام سِراعاً وتستمرُّ لقاءات الحُبِّ بين علي وسلمى الَّتي باتت محطَّ عبادتهِ إلى أن قرَّرا مَعاً تحديد موعدٍ لجعلِ ارتباطهما مُعلناً عبر الإقدام على الزَّواج، فَحدَدا تاريخ العاشر من أيلول لإعلان ذلك، وكان كلُّ شيء يمضي دون أن يُعكرَ صفوهما أمر إلى أنْ حدثَ ما لم يكن مُتوقعاً، ولم يكن في الحُسبانِ.

(18)

كانتْ سُعاد الرَّاعي في طريقها إلى مَكاندو، بعد غيبةٍ استمرَّت أكثر من سنتين قضتهما أسيرة لدى تنظيمِ الدَّولةِ الإسلاميَّةِ، وإذ لم يكن أحد يعلم بذلك، فقد كان أهلها قد أقاموا لها مجلس عزاء منذ نبأ مقتلها، قبل سنتين، ولا أحد كان يُمكنهُ أن يتوقعَ ما تحمله الأيَّام من مفاجآت غَايةً في الغَرابةِ، فها هي قد عادت من عمقِ موتِها إلى دارِ والدها، فكانت تنتابها دموع الفرح، وغَصَّة الألم، وطالما تعثَّرت ريثما وجدت من يَقلُّها إلى مَكاندو، وحالما طَرقتْ بابَ منزلِ أبيها فتحت والدتها الباب، وحينما رأت سُعاد بمواجهتها أغمي عَليها لِهولِ المُفاجأةِ، فَشرعت سُعاد بالصُّراخ والعَويل، وحينما سمع والدها وإخوتها ذلك قدموا جميعهم فتفاجأوا بسُعاد على عتبةِ منزلِهم، فذهلوا واحتضنوها، وشرعوا في احتضانها وتقبيلها غير مُصدقين عيونهم، وحينما شَرعتْ والدة سُعاد بالتعافي من صَدمتِها ذهبوا جميعهم إلى غرفة المعيشة القريبةِ من المَدخلِ، فتحلَّقوا حولها مشدوهين، وبعدما قدموا لها الطعام والشراب، راحت تروي لهم حكاية سَبيها من قبلِ مُسلحي الدَّولةِ الإسلاميَّةِ، وما عانتهُ من مرارةِ ذلك السَّبي، وحدثتهم عن الحظِّ الَّذي واتاها إذ التقت بمُنقذها جمال الخاني الَّذي فكَّ أسرَها.

كانتْ دموع الأسى والفرح تملأ مآقي الجميع، وهي تسردُ عليهم ما قاسته من أهوالٍ أثناء محنة سبيها.

وخلال ذلك كان أخوها أسعد، الذي يعمل في مهنةِ البيتون يراقبها من بعيدٍ، وقد بدا مُتكدِّراً لأمرٍ ما قد دارَ في خلدهِ.

وفي اليوم التالي لوصولِ سُعاد فوجئت بوالدتها تتحرى عن عُذريتِها إذ كانت والدتها مدفوعة إلى ذلك السُؤال تحت ضغوطاتٍ، وتهديداتٍ شديدة الوطأة من قبلِ ابنها أسعد، فروت سُعاد لوالدتِها بمزيدٍ من الأسى كيف أنَّها قد فقدت عُذريتها مُرغمةً على يدِ الأمير في الدَّولة الإسلاميَّة أبا حفصةَ العَنزيّ، ولم تمضِ أيَّام قليلة على اعترافها لوالدتها بفقدها لعذريتها حتَّى طلبها أخوها أسعد كي ترافقه في نزهةٍ إلى مزرعتِهم القَريبةِ، وهنالك تَمكَّن من الانفراد بها فَجذبَهَا من شَعرِهَا الأشقرِ المَجدُولِ وأسقطَها أرضاً، وبعدما وطأ بقَدمهِ المُتسخَةِ خَدَّهَا الوردي، قام بتقييدِ يديهَا الغَضَتين خَلفَ ظَهرِها، ثمَّ جَلسَ بجثتهِ الضَّخمةِ على صَدرِها النَّاهد، واستلَّ من نِطاقهِ سكيناً حَادَّةً، فراحت سُعاد تَستغيثُ، وهي تنتفضُ تحت ثِقلهِ، دون أن يأبهَ بذلك، فجزَّ عُنقها بدمٍ بارد، وبدأ الدَّم الأحمر القاني يتدفقُ على نَحرِها المَرمَريُ، فيروي تاريخاً طويلاً مُخزياً من العَماءِ، وبينما راحَ جَسدُ سُعاد

ينتفض إلى أن تلاشَت روحها في ضبابِ سَلامها الأبدي، كانَ أخوها أسعد يجأرُ كالثَّورِ الهَائجِ، ونشوةِ الانتصار باديَّة على كلِّ ملامحهِ المُنفرة، غير عابئ بكلِّ ما مرَّت به أخته سُعاد من محنةِ الأسر والسَّبي، والأهوال الفظيعة الَّتي كابدتها.

وهكذا شاعت حكاية عودة سُعاد، وما تلاها من تصفيتها الوحشيَّة على يدِ أخيها أسعد، وحينما وصلت تلك الأخبار المُفجعة إلى علي الرَّجوب كانت بمثابةِ الشَّعرة الَّتي قسمت ظهرَ البعير، مما ضاعف أحزانهُ وفاقمها، فعاودته حالات الاكتئاب من جديد، وبشكل أكثر حدَّة من قبل، فبات مُبلبل الفكر شَريد اللُّب لا يدري ماذا يُمكنه فعله، فهَام على وجههِ في الطُرقاتِ، وبات يُحاور كلَّ من يُصادفهُ بضرورةِ التنوير للخلاصِ من الفكرِ الظلاميِّ، الَّذي بات يُشكلُ خَطراً مُحدقاً على الوجودِ، والمُستقبل.

وقد بات الجميع في مَكاندو، وقد اعتادوا عليه شاباً مهذباً وممتلئ بالثَّقةِ بنفسهِ، يرثون لحالهِ، وما آل إليه وضعه.

وقد استمرَّ كذلك إلى أن تفاقمَت حالتهُ فصَار يَعظُ حتَّى الدَّوابِ المارَّةِ في الدُّروبِ، فاضطُرَّ أهله وأصدقائه إلى

إدخالهِ مَصَحةً خاصةً للأمراضِ النَفسيَّةِ الحَرجة حيث أمضى فيها زمناً طويلاً.

(19)

كانَ الطريقُ إلى مصحةِ الأمراض النفسيَّة الحَرجة يمرُّ بساحةِ مَكاندو، ومن هنالكَ يتمُّ الانعطاف غرباً لمسافةٍ تبلغ حوالي ألفي متر وصولاً إلى تلكَ المصَّحة الواقعة في الجِّهةِ الغربيَّةِ من المدينةِ حيث كانت سلمى الأسمر تَستَقُلُ سيارةً متوجِّهةً إلى هنالك، وعيناها مُبللتان بالدُّموع، وكان ذهنها شارداً إذ ألحَّتْ عَليهَا كلُّ الذِكريات الحُلوة الَّتي جمعتها مع علي الرَّجوب، وإن لم تكن مدَّة تعرُّفها إليه طويلة، فقد كانت كافيَّة لكي تَزداد تعلقاً به حتَّى أقصى حالاتِ العشقِ والهيام، إذ كانت تعتبره أكثر الأصدقاء نبلاً وصفاءً وثقافةً، وفي فقدها له باتت تَشعرُ بعدم جدوى حياتها كلِّها.

توقفت السَّيارة أمام مبنىً أبيض مؤلف من طابقين تمتدُّ أمامه فسحة واسعة تطلُّ على الحديقةِ العَامةِ لبلدة مَكاندو، وخلف الباب الرئيسيِّ الواسع للمدخلِ إلى جهةِ اليمين كان ثمَّة غرفة للاستعلامات.

كان الوقت عند هبوطِ الظلام، والأضواء تشعُّ من كلِّ نوافذِ ذلك البناء الأبيض، الَّذي بدا لسلمى بالرُّغم من ذلك كئيباً مُوحشاً.

ترَّجلت سلمى من السَّيارةِ الَّتي كانت تقلُّهَا، ثمَّ تقدَّمتْ بخطواتٍ واهنةٍ حذرة، فَطلبت من موظَّفِ الاستعلامات الإبلاغ عن حضورِهَا في زيارةٍ سبق أن أخذت إذناً خاصاً بها من الطبيبِ المُشرفِ على المَصحةِ، وبعد أن دقَّقَ المُوظفُ في ورقةٍ ناولتهُ إياها سلمى، وطابقها مع سجلاتهِ طلبَ إليها أن تتبعَهُ إلى قاعةِ الانتظار، فدلفت إلى تلك القاعة، وانتقت طاولة قصيَّة في الرُّكن الغَربيِّ لتجلسَ بالقربِ من نافذةٍ تطلُّ على الحديقةِ العامة لمَكاندو، فكانت سلمى في أشدِّ حالات القلق والارتباك، ودموعها تنهمر على وجنتيها كوابلٍ من الطلِّ على بتلات وردة، حينما دخل علي الرَّجوب برفقةِ مُمرض أسمرَ مربوع القامةِ يرتدي مَريلةً بيضاء، ومظهرهُ ينمُّ عن قوَّةٍ بدنيَّة عاليَّة بينما بدا علي الرَّجوب نَحيلاً واهن القوى، يرتدي سروالاً سماويَّاً تعلوه سترة من ذاتِ اللَّون، فسارعت سلمى إلى عِناقهِ فبدا مَذهولاً مُتفاجئاً بالَّذي يحصل لهُ، فخاطبته سلمى بأسىً بالغ:

- لقد كان عليكَ أن تكون أكثر بأساً، فلا تتركني أعاني وحشة فقدُكَ.

ثم رفعت كفَّها لتداري دمعةً راحت تتدحرج على خدِّها.

ردَّ علي الرَّجوب، وقد بدا عليه التأثر الشَّديد:

- إنَّهَا الحياة الَّتي تقرِّرُ مصائرنا بغير إرادة منَّا، وقد أبت علينا أن نكون سُعداء، فكلُّ هذا العالم الظَّالم يتعقبنا، وما أن نشرع في تلمسِ سُبلنا إلى الفرح، حتَّى نجد من يُصادر حريتنا، ويُعيدنا إلى الظُلمات.

كانت سلمى تُصغي إليه بانتباه شديد، وقد توسَّمت خيراً بتلك المُقدِّمة الَّتي حدَّثها بها إلى أن شرع يرفع صوته أكثر فأكثر حتَّى بدا وكأنَّه، منفصل تماماً عن الواقع، يتحدث إلى مسرحٍ واسعٍ من النظَّارة، وهو يقول:

- تَكمَاندو، وكلُّ هذا الشَّرق سيغرقون بالدِّماء طالما لم نُدرك بعد ماهية الإله الحقيقيّ على أنَّه رحمةً ومَغفرةً وضياء، لقد آن لنا في هذا الشَّرق أن نَكنُسَ كلَّ هذا العَفن الَّذي راكمهُ كَهَنَةُ الأديان عبرَ عشرات القرون، آن لنا أن نتلمس سُبل الضِّياء.

وبينما كان علي الرَّجوب يُسهبُ في خطابهِ كانت سلمى تتأملهُ بأسىً، والدُّموع تنهمر مِدرارة من مآقيها، وفي هذه الأثناء كان القائمين على حراسةِ المصَّحةِ قد هرعوا إلى علي لينقلوه إلى مَهجعهِ، فكانت سلمى تراقب كلَّ ذلك والحزن يغمرُ روحها، وبعدما احتضنته بقوة إلى صدرِها وقبلت جبينه وشفتيه، ثم توارى بعيداً عن أنظارها، فخرجت مُحطمةً تُجرجر قدميها إلى الطريق العام حيث كان ينتظرها هنالك، بسيارتهِ الفارِهَة، على

الرَّصيف المقابل محمد البني، الَّذي كان قد باعَ كلَّ ما ورثه عن والدهِ من أملاكٍ في الطويلةِ لأجلِ الالتحاق بسلمى الأسمر، فسافرا معاً إلى جهةٍ مَجهولَة.

كان كلُّ شيءٍ في تَكماندو يشي بهبوبِ رياحٍ عاتيَّةٍ لنْ تبرح حتَّى تُطَّهرَ الأرض، وقرية الصَّبار تغرقُ في حُلمِها الورديّ، وخيوط الفجرِ الأولى تلوح على بُستان محمد الرَّجوب في صبيحة الخامس عشر من شهر نيسان لعام 2018، فَتغمر بنورها ذُرى الأشجار، والعَصافير على أفنانها تغرّدُ للضِّياء، في حين كانتْ سُمَيَّة تَستقبلُ حفيدهَا الجديد، الَّذي أسمته علي الرجوب.

تَمَّتْ

سَلَميَه في 25 تموز لِعَام 2021م.